صِدامُ الحفريّات

"أركيولوچيا الأرضِ والسماءِ"

"رواياتٌ وَمْضيّة"

كريم الصياد

صِدامُ الحفريات

مُقْشَعِرَّات

الحراشيف

كُتبت هذه الأعمال في الفترة من 14 مايو 2009 إلى 9 يونيه من العام نفسه.

إهداء..

إلى الأرض،

والماء،

والحلم..

محمد عفيفي مطر

كريم الصياد

2009

فهرس



"أركيولوچيا الأرضِ والسماءِ"

1-ضوءُ 1,000,000 ق.ت

لعق الرجل ساق الفتاة في شهوة حقيقية، لم يتصور أن يصل به الحرمان إلى هذه الدرجة، لعق الأصابع وحتى أطراف الأصابع، يشعر أنه ذليل ومنحط وشاذ، ولكن هذا ليس غريبًا، إنها شريعة الحرمان.

أثناء انهماكه اخترق سمعَه صوت خارج الكهف، اخترق الصخرة التي يغلق بها المدخل، وما وراءها من جدار بدائي من الفروع والأوراق يسد بها الفرجات التي تركتها الصخرة، واخترق حتى صوت أنفاسه الوحشية التي عصفت فيما بين الساق وأذنيه.

رفع وجهه وأنصت، صوت غريب يختلف عن صوت الوحوش، طنين مستمر متصل، وفي ظلام الكهف الخافت دخل شعاع من الضوء الأبيض الناصع، ترك كل شيء وتوجه إلى الصخرة، نظر من إحدى الفتحات فرأى طائرًا فضيًا عجيبًا يتألق بأضواء عدة، يحط من السماء إلى الأرض، لم يكن الرجل ذكيًا بما يكفي للاندهاش، ربما غلبه الحرمان، فترك المشهد وعاد.

في الصباح سيجدونه مجرد علامة سوداء على الأرض.

لعق الرجل عظمة ساق الفتاة، لم يتصور أن يصل به الحرمان إلى هذه الدرجة، لعق الأصابع وحتى أطراف الأصابع، يشعر أنه ذليل ومنحط وشاذ، ولكن هذا ليس غريبًا، إنها شريعة الحرمان.

2-العهد

ها نحن جئنا يا أنبياء

الأرض عذراء

ونحن جميعًا سنصير من أبنائها

دعونا نرع الغنم

نتبنَّ البشر

من كان بلا أرضٍ فليمش على الماء

فليعرج إلى السماء

أو فليأت بسلطانٍ آخَر

وليتنبأ كل منا بموعد التالين

على هذا عاهدنا أنفسنا

عليه نمسي، عليه نصبح

عليه نرحل

عليه نعود من حيث جئنا.

3-ساقٌ سارحة، وساقٌ ملتوية

كانت الفتاة تزحف على معصميها وبطنها وركبتها، وهي ترمق في ذعر عظمة ساقها التي نجت من الكهف، استغربتْ لهذا، من الكهف كله لم ينج شيء بعد

هبوط الطائر المعدني سوى عظمة ساقها التي سرقها الرجل، ولم يُبق عليها لحمة واحدة.

كانت الكلاب الوحشية تتصارع على العظمة، وخافت هي دخول المنافسة.

تقفز العظمة من فك إلى فك، ويخدشها ناب ثم ناب، فيما بعد ستذكر الكلاب هذه الرياضة، وتلعبها في أمريكا، بل وأمام كاميرات التلفزيون والسينما أيضًا.

عاوّوو.. عاوّوو..

خافت الفتاة من زئير الكلب الذي يطردها من المباراة، فنهضت تقفز على ساق واحدة.

وقعت في حفرة، فالتوَت ساقها الباقية، ويبدو أن الكلب قرر التأكد من أنها لن تُربك لعبَهُ ثانيةً.

4-الساميّون

حليفنا الأول والأخير هو الظلام

ليل طويل في منتصفه ستشرق شمس

لكنها ستغرب بسرعة ككل نجوم هذا الكوكب

أوقدوا المصابيح

اكسبوا ثقتهم بالنور

وَأْتوهم من الشرق

يمكنكم أيضًا أن تقدسوا هذا النور

اجعلوه إلهًا

وهو ما سيبرر لهم إلى حد ما أنهم لن يروه

لا تجعلوهم ليعرفوا أبدًا أنه مصباح ببطارية

فربما تمكنوا من صنعه يومًا وكفروا به

الإنسان يكفر بما يصنع

بالضبط كما يعبد ما يصنع

وبعد الثورة الصناعية سيصنع الإنسان كل شيء

كل شيء

إلا النور.

5-عاوّ.. بْسُو

حين تساقط عليها زبد الكلب وهو يشرع في النزول إليها تذكرتْ:

"-بْسُو.

-ما هذا؟

-قُبلة.

-ما معنى قبلة؟

-أنت تراني أمضغ الطعام لطفلي ثم أضعه في فمه كالطيور بفمي.

-نعم.

-هذا معناه أنني أعاملك مثل طفلي وأحبك."

لحظتها التمعت عيناه في شهوة وهو ينظر إلى ساقها العارية.

لن ينسى البشر هذا الموقف أبدًا.

كان الكلب يزبد، ففكرت أنها قد تكون طريقته في تقبيل حبيبته.

حتى لو التهمها، الآن تفكر أنها قد تكون طريقته في المضاجعة.

6-الآريّون

القرَدة نوعان:
قرد مثقف وقرد جاهل
القرد المثقف يتساءل من أين جاءت البرتقالة
والقرد الجاهل يأكل البرتقالة
القرد المثقف ستقوده البرتقالة إلى الشجرة
والشجرة إلى الأرض
والأرض إلى السماء
والقرد الجاهل لن يربط أبدًا بين البرتقال والسماء
مع ذلك اعلموا:
أن القرد المثقف سيعتمد على عينيه ولن يتبعنا
وأن القرد الجاهل سيعتمد على أذنيه وسيسمعنا

أرسلوا القردة المثقفة إلى حيث تغرب الشمس

طهِّروا شعبنا من القردة التي تأكل البرتقال وتقذف القِشْرَ على السماء.

7-الابن العاقّ

حين نزل إليها الكلب كانت مستسلمة تمامًا، وكانت تتذكر:

انتهز الرجل فرصة التفاتتها وخطف الساق التي ما تزال نيئة من الطبق.

صرخت وجرت وراءه، هذا اللص الخائن، لقد فضّل الطعام عليها، فضل ساقًا بلا امرأة على امرأةٍ بلا ساق، ربما تكون لديه امرأة أخرى بساقين أو ثلاثة أو أربعة.

جلست في حزن تبكي ويديها على خديها، بينما بكاء طفلها يمزق قلبها.

للأسف كان هذا–في حدود ما تعلم وتستطيع–آخر ما في العالم من طعام.

8-العناصر

بعد أن طهرتم الشعب من الآخرين

اعلموا أن الآخرين لن يسامحوا الشعب أبدًا

سينتقمون ولو بعد آلاف السنين

وهذا ليس سيئًا

كلما فرقتم بين البشر كلما زادت حاجة البشر لنا

لأننا سنكون أملهم الوحيد في الأخوّة

احملوا الأبيض إلى الشمال

خاصةً وأنه لن يتحمل لهيب الشمس

وأرسلوا الأسوَد إلى الجنوب فإنه سيتحمله

واعزلوا بينهما بالقمحيّ

يجب أن تعزلوا بين العناصر المتناقضة بعنصر وسيط

وإلا اشتعلت حرب سريعة قبل أن يكتمل عملنا

ابعثوا الأصفر عبر الأرض

والأحمر عبر البحر

زوّجوا كل جنس من جنسه

النقاءُ ماءُ أشجار الكراهية.

9-ثَرْثرة

الكلب يبدأ في نهشها وهي تفكّر في سرعة: هل يكون هذا عقابًا؟ لا ريب أنها تشعر بالذنب لأنها أغوت رجلها بأن يأكل من آخر ما كان من طعام، لماذا تشعر بالذنب؟ هذه مسألة معقدة جدًا عند البشر قد نفهمها فيما بعد، المشكلة الآن أن الكلب لا يعرف كل هذا.

-لماذا تأكلني؟ لماذا؟ لماذا؟

10-عَدَن

لا يوجد وجود ولا عدم

نحن نعرف ذلك

قدموا لهم الوجود يفوح منه البخار على طبق شفاف من عدم

لا يوجد وجود أو عدم

نحن نعرف ذلك

لكن البشر يرون ما يحلمون به

قدموا لهم الحلم على طبق من كابوس مخيف

إن حياة البشر قاسية

قدموا لهم حلمًا لا يدوم

كي يدوم

في هذه الأيام التي لا تلعب فيها الكلاب مع الإنسان..

حديقة صغيرة ذات شجرة واحدة ستكون أجمل

ستكون أرحب

ستكون أشهى

من كل ما سيصنع الناس من حدائق

من كل ما سيجرب الناس من شهوات

ستكون كذلك محرمة

لأن البشر يحرّمون ما يجدون

ويكتفون بالحلم به

ثم يأكلون من الحلم

كي يظل الحلم حلمًا

ويظل الواقع ذنبًا

اقطعوا كل الأشجار عدا شجرة واحدة
قدموا لهم الوجود على طبق من عدم
لا يوجد وجود بدون عدم
نحن نعرف ذلك.

11-نَدَع

لا يوجد وجود بدون عدم، وهي تعرف ذلك، حتمًا ستجد وسط هذا الجوع ما تطعم به طفلها، بحثت كثيرًا حتى وجدتْ ساقها، كان عليها أن تتخذ أول قرار في تاريخ البشرية، لا ريب أنها اتخذته في شجاعة، نحن متأكدون من ذلك، والغريب أنها لم تكن تفكر وهي تموت في فك الكلب إلا في سؤالها: كيف أحبت طفلها إلى هذه الدرجة؟

وهو سؤال سوف تنساه البشرية بسرعة.

12-الرمز

فرغ الكلب فنهض يجر الدماء خلفه تخدشها الأرض، ورائحة اللحم العاري تغري باقي الكلاب، هنا وجد الطفل فرصته، اللعبة التي كانت طعامًا حرامًا، والتي صارت طعامًا حلالاً، والتي كانت في الأصل شيئًا عزيزًا على أمه التي أصبح يلاحظ عليها اختلافًا لا يستطيع تحديده.

كانت اللعبة البيضاء اللامعة أمامه، لكنه انتظر الليل حتى ترحل الكلاب.

لم تكن غريزة اللعب تحركه، ولا ذكرى أمه، فقط لم يكن له شيء في العالم سواها، لم يكن له مكان إلا الطريق إليها، ولا زمان إلا الانتظار في سبيلها.

نهض من مخبئه نحوها.

بدأ يزحف.
ثم نهض يمشي.
ثم جرى.
الآن فقط عرف أنه يمشي ويجري.
قفز فوق الأحجار.
ضرب الفروع فتحطمت.
تحطمت!!
ثم وضع اليد عليها.
(لن ينسى البشر هذا التعبير بالمناسبة)!
كان يرتجف، يلهث، يخفق قلبه من النشوة، رفع العظمة بيد واحدة إلى أعلى.
كانت عيون الكلاب تبرق من بعيد لكنها لم تجسر على الاقتراب.
برقت عيناه هو كأنه اكتشف شيئًا.
أنا سيد العالم.
نظر إلى الجهة الأخرى.
أنا سيد العالم.
نظر إلى الجهة الأخرى.

أنا سيد العالم.

نظر إلى الجهة الأخرى.

أنا سيد العالم.

نظر إلى السماء.

أنا سيد العالم.

فانطلقت الكلاب تجري في كل اتجاه.

13-المقصّ

الطيور نوعان:

طيور تطير وطيور لا تطير

الطيور التي تطير ترى من أعلى وتزداد حكمة

الطيور التي لا تطير ترى من أسفل وتزداد تيهًا

الطيور التي تطير سوف تصبح رموزًا حكومية في الأعلام والأختام

الطيور التي لا تطير ستصبح رموزًا لوصف غباء الشعوب واستسلامها

مع ذلك اعلموا:

أن الطيور التي تطير تملك الرمز ولهذا لا تحتاجنا

وأن الطيور التي لا تطير لا تملكه

اصطادوا الطيور التي تطير

انزعوا الريش من السماء.

14-الصولجان

لم يعد الطفل يخاف الكلاب.

كان يقبض على العظمة ويسير دون خوف وسط الكلاب والذئاب التي طالما اعتقدت أن البشر كائنات غبية لا تعتمد على أنفسها.

أقلقها لأول مرة هذا الطفل، وأضاعت كل الفرص الثمينة في التساؤل والتردد.
ثم تناقلت عبر الأجيال قصته.

الطفل الذي صار يمشي ويجري ويقفز ويحطم الفروع.

الطفل الذي سرق العظمة من الكلاب وهزمها في المباراة النهائية بينها وبين البشر.

الشاب الذي عاش في الغابة كواحد منا، ودسّ في جلده العضلات فوق العضلات، والذي غطى عورته حتى لا يكون كلبًا.

الذي لم يهاجم أحدنا أبدًا من الخلف.

حتى لا يكون ذئبًا.

الذي خرج إلى البشر لا بشرًا ولا كلبًا ولا ذئبًا.

كان الرجال يلتهمون النساء، والنساء يلتهمن الأطفال، والساقية البشرية تأخذ من مجراها الكثير وتصبّ فيه القليل، أوشك الناس أن ينتهوا، لكنه كان يلاحق الغزلان ويصارع عليها الفهود.

خرج إليهم وضرب الرجل والمرأة، ثم أعلن أنهم سيأكلون الغزلان، غرس العَظْمة في الطين، وقال:

-لو أن أحدكم اقترب منها سأخمشه وأعضه، عاوّ، عاوّ.

فابتعدوا في خوف.

ثم اختار امرأة معها أكبر عدد من الأطفال، أوقفها عن يمينه، وأوقف الأطفال صفًا عن يساره، راح يستعرض كلاً منهم بالدور سائلاً:

-من منكم أبو هذا الصبي؟

-...

-من منكم أبو هذا الصبي؟

-...

-من منكم أبو هذا الصبي؟

-...

-من منكم أبو هذا الصبي؟

-...

ثم استنطق المرأة صائحًا:

-من أبو هذا الصبي؟

-هذا.

-من أبو هذا الصبي؟

-هذا.

-من أبو هذا الصبي؟

-هذا.

-من أبو هذا الصبي؟

-هذا.

فهتف فيهم:

-لأن المرأة وحدها تعرف من يكون أبو كل منا ستكون الزعيمة، وسيكون على كل أب أن يأتي لأطفاله بلحم الغزال، وإلا أخبرتْني الأم وجرحتُه وعضضتُه.

سأله أحد الرجال:

-ما معنى زعيمة؟

-يا غبي.. في مجتمعات الكلاب والذئاب المتقدمة يوجد على رأس كل قطيعٍ كلبٌ أو ذئبٌ قوي، وهذا هو ما يُسمّى بالزعيم.

-لكن الأم ليست قوية.

-الأم ليست قوية، الأم مقدسة.

-ما معنى مقدسة؟

-أنها أقوى منا جميعًا برغم أنها ليست أقوى من أحد منا، وأننا سنجعل لكل منا اسمًا ينتهي باسم أمه.

-وأنت.. ماذا ستكون؟

-أنا؟ أنا العاقّ.

-ما معنى العاقّ؟

-العاقّ هو الذي يقول "عاقّ" ويضربك لو أنكرت أن هذا الطفل طفلك.

سأله آخر:

-وهل سيجعلنا هذا أقوياء كالكلاب؟

-لن نكون كلابًا، سنكون أفضل

سنكون بشرًا.

-ما معنى أفضل؟

-معناه أننا لسنا أقوياء ولا ضعفاء.

-وما معنى بشر؟

-الذي ليس قويًا ولا ضعيفًا ولا كلبًا ولا ذئبًا.

15-السّقْف

الطيور التي تطير لا تخاف الكلاب

والطيور التي لا تطير تخافها

الطيور التي تطير لن تخافنا

أما الطيور التي لا تطير فستستعين بنا

إن الطيور التي تطير لن تحسدنا على أجنحتنا ولن يسحرها تحليقنا

أما الطيور التي لا تطير فستؤمن بالسحر والحسد

راقبوا كل من لا يخاف الكلاب

لأنه لن يخاف شيئًا على الإطلاق

راقبوا كل من لا يطمح أن يكون كلبًا.

16-قابيل

أنكر الرجل ابنه، بينما اشتعلت عينا المرأة بالاتهام، لا نعرف الآن أيهما كان على حق، وخلاصة الموقف أن العاو الذي كان قد بلغ الخمسين وما يزال وحشًا ضربه ضربة واحدة فمات.

هزّه فلم يستجب، تعجب العاو أن الضربة لم تكن قوية إطلاقًا، وتهامس الجميع:

-العاو قَتَل.

-العاو قَتَل.

-العاو سيأكله.

-العاو لا يأكل البشر.

-إذن لماذا قتله؟

-للعاو أسبابه.

-بل هو خطأ غير مقصود.

-ماذا تقولون؟ دعونا نتخلص من العاو، إنها فرصتنا لنتخلص منه.

17-الحصاد

حافظوا على الشجرة واقطعوا جذورها

حافظوا على الفروع والأوراق والثمار واقطعوا جذعها

حافظوا على الأوراق والثمار واقطعوا فروعها

حافظوا على الثمار وانزعوا أوراقها

الأغبياء فقط هم الذين يحصدون الثمار أولاً ثم يبقون على الشجرة دون ثمار.

18-الشيخوخة

بعد موت الرجل المريب، واتهام العاو الظالم، طرده الناس من القبيلة، وألقوا بجثة المقتول معه.

رأى الجثة هامدة أمامه، انتظر الليل حتى رحل الناس ثم تسلل.

لم تكن غريزة الإنسانية تحركه، ولا الندم، فقط لم يعد له شيء في العالم سواها، لم يعد له مكان إلا الطريق إليها، ولا زمان إلا الانتظار في سبيلها.

حملها على ظهره.

جرى.

ثم بدأ يمشي.

ثم بدأ يزحف.

حمل الجثة طويلاً.. طويلاً.

رأى غرابًا يحمل غرابًا ميتًا، إنه مثله برغم أن أحدًا الآن ليس مثله.

سار وراءه عله يعرف كيف يتخلص من الجثة بما يليق بالكائن الأفضل، الذي ليس قويًا ولا ضعيفًا، لم يعرف إلى أي مقبرة يقوده، فكّر أن الغراب يضلله إلى أن يتعب، أو يقوده إلى فخ، لم يحسم الأمر حتى دفن الجثة ثم رقد جوارها هامدًا، لا يقوى على الحركة، ولا معه العَظْمة.

نظر أمامه.

نظر إلى الجهة الأخرى.

نظر إلى الجهة الأخرى.

نظر إلى الجهة الأخرى.

وكانت الكلاب تأتي من كل اتجاه.

كل اتجاه.

19-اللحم والفطير

إن أكْل لحم النوع نفسه عادة سيئة

البشر يعرفون ذلك

وهو ما سيجعلهم يقلعون عنه

لن يكون هذا سهلاً

لذلك سيكون أول من يفعل بطلاً

وستنمو شجرة جديدة

اقطعوا هذا الجذر

قولوا: ليس في الأمر بطولة

إنما هو عودٌ إلى الفطرة

قولوا: البطل هو من عاد

وليس من خرج

لو قلتم هذا فسينسى الناس مذاق لحمهم

في الوقت نفسه الذي سينسون فيه البطولة

لأنه لا بطولة في وجود الفطرة

الأبطال يأكلون اللحم ولا يأكلون الفطير

هذه بداهة.

20-الخُبْز

كانت الأم الكبرى ما تزال أمًا وما تزال كبرى، كانت القداسة هي العاقّ غير المنظور الذي حمى عرشها، وقد حجبتها سنين الزعامة والشيخوخة بحجب أسطورية، وسرعان ما تناقلت القبائل الأخرى هذه الشريعة، وصارت على رأس كل قبيلة أم كبرى تحفظ وحدتها الروحية أو وحدة الدم فيها.

صار العاو الحقيقي–وسيصير–مجرد أسطورة لإخافة الصغار، كان أولاً يخيف الكبار، وتمثلت صورته كوحش غير آدمي قاتل شرير، وتم تجريده من كل أوسمه البطولة.

نسي الناس أنه هو من خلصهم بشجاعة من أكل لحم البشر، ليس هذا هو الأصل الذي خرج عليه، الأصول لا يخرج عليها أحد، الأصل هو التحريم، والعودة إلى الأصل ليست إبداعًا، ليست بطولة، لكنها مع ذلك فضيلة.

وصار معنى الأفضل مختلفًا.

لقد دُفن المفهوم الأصلي مع جثة العاو التي تفرقت في أنحاء الأرض والسماء.

21-دِيك الحظيرة

البطولة لا تنسجم مع الشيطان

الشيطان لم يكفر بالإله

بل بالبطولة

إذا أردتم أن يكفر الناس بالبطولة..

إذا أردتم أن يكفر الناس بأبطالهم..

اجعلوهم يؤمنوا بالشيطان

لا نعرف ما الشيطان

أنا نفسي لا أعرف

فليكن شيئًا ما
وستصبح البطولة لا شيء.

22-الخطأ

مرت السنون وظهرت طفرات واستمرت طفرات وماتت طفرات.

اضطرت الأم الكبرى للاعتراف بأن العظْمة المقدسة نتاج خطيئة، امرأة خاطئة أغوت زوجها بالأكل من اللحم الحرام، ولم تكن استعادتها ذات قيمة.

وتجاسر بعض الشباب ونزعوا العظمة، بل ألقوها إلى الكلاب.

لا يعرف أحد الآن: هل سيصير الكلاب بشرًا؟ أم سيعود البشر كلابًا.

لكن هذا السؤال لم يشغل أحدًا، السؤال الحقيقي كان التالي:
-لماذا أغوتْه المرأة؟ ولماذا أكل هو؟ لماذا أخطآ؟ لماذا الخطأ؟
لو كان الجوع هو السبب فأين الخطأ؟
ألم تفكروا بهذا؟
لو كانت هذه قديمًا العادةَ والأصلَ...؟
لا.. لا، أنسيتم أن الأصل كان التحريم؟
إذن.. كيف؟

هنا.. ظهر للمرة الأولى، لا أعرف كيف أصفه لأن أحدًا لم يره، أنا رأيته عدة مرات لكني كذلك لن أصفه، برغم هذا كانوا جميعًا قد أدركوا وجوده في لحظة واحدة:

-(هو) الذي دعاها إلى الخطإ.

-من (هو)؟

-أنت تعرف من.

-هل رآه أحد؟

-لا نحتاج لرؤيته.

-لو كنا نراه لما خَدعَنا.

-هل يخدعنا؟

-لا.. إنما يدعونا ونحن نخطئ.

-إذن لماذا لا نراه؟

-لأنه ليس مثلنا برأس وصدر وبطن وأطراف.

-وهل يعيش أحد بلا كل هذا؟

-هناك.. هناك كائنات لا نراها بلا أجساد.

-من قال هذا؟

-هذا (منطقي).

-ما معنى منطقي؟

-التفسير الوحيد الممكن.

-وهل يخطئ كل من يسمع كلامه؟

-نعم، ويكون شريرًا.

-ما معنى شرير؟

-ليس أفضل.

-ليس بشرًا؟

-يمكنك اعتباره كذلك.

-وهل نستطيع أن نأكله؟

-بل نتركه لتأكله الكلاب، مثلما فعلنا قديمًا مع العاو.

-إذن نحن لسنا جميعًا أفضل من الكلاب؟

-نعم، بعضنا فقط كذلك.

- إذن لم يكن أحدنا أفضل حين قرر ألا يبقى كلبًا؟

-نعم، لم يكن، بل حين لم يستمع إلى (هو)، حين (لم يقرر).

-إذن الناس نوعان:

قرر، لم يقرر

استمعَ، لم يستمع

شرير، أفضل

كلب، بشر؟

-يمكنك أن تقول تبسيطًا: شرير وخيّر.

-ما معنى خيّر؟

-مع الخيْر، عكس شرير: مع الشرّ.

-وما الشر؟ وما الخيْر؟

-(هو) الشرّ، أما الخير فألا نستمع إليه وأن نفعل (الصواب).

-وما الصواب؟

-الصواب.. الصواب هو كل ما يؤدي إلى أن نبقَى نطعم أطفالنا اللحمَ الحلال.

23-البيضة

إن تقدم البشرية يتلخص في أن يكفوا عن قولهم (ماذا) وأن يقولوا (أين)

إنهم يعرفون أنهم (صاروا) ويسألون (مِن ماذا)

ويجب أن يعرفوا أنهم جاءوا

وإذا عرفوا أنهم جاءوا سيسألون (مِن أين)

البطولة تحيا في الزمان وتموت لو خرجت إلى المكان

ضعوا البشر في أي مكان

الطفولة تلعب في المكان وتكبر وتصير قبيحة إذا تقدمتْ في الزمان.

24-القفص

-أبي، من أين جئتُ؟

-أنت لم تجئ، نحن كنا كلابًا ثم صرنا أفضل لأننا رفضنا أن نكون كلابًا أو ذئابًا.

-إذن نحن أفضل ليس لأننا (عدنا) إلى فطرتنا، بل لأننا أبدعنا أنفسنا.

-لا.. أنت مخطئ.. أنت كثير الكلام أيضًا.

-لكنني لست مخطئًا، أنا لم أستمع إلى (هو)، ولم أكسر قانون (الصواب).

-حسنًا، نحن أفضل لأن لنا الروح، هي أصلنا وحقيقتنا، وهي التي تميزنا عن الكلاب وغيرها.

-الروح؟؟!!

-الروح.

-ما الروح؟

-لا أدري، لا أحد يدري، لكنك تذكرُ أنّ (هو) موجود رغم أنه بلا رأس أو صدر أو بطن أو أطراف.

-نعم.

-الروح شيء كهذا.

-الروح؟

-الروح.

25-البئر

الإنسان الذي لا يملك شيئًا لا يحتاج شيئًا

والذي لا يحتاج شيئًا لن يعرفنا

ضعوا في يد الإنسان المفتاح وخبّئوا الصندوق

ثم أعطوه الصندوق وخذوا المفتاح

احفروا فيه كالدودة

علّموه أن يحكّ هذا الموضع

كلما أخذ منه ملءَ كفّيه ازداد فراغًا

لا تتركوه أبدًا يعرف عمقه

الماء المالح هو أفضل علاج للنحافة

خاصةً تلك الناجمة عن الزهد.

26-(رَوْ)

انتشرتْ الأسوار.

الناس الجادون اعتبروها ديانة، والناس الهازلون اعتبروها موضة.

صار كل شيء عليه اسم شخص.

ثم صار كل شخص عليه اسم شيء.

وبعد أن تقدم الصيد صارت أدوات الصيد أغلى من اللحم، وبعد أن تعلم الناس الرعْي صارت أدوات الصيد وأراضي الرعي هي أهم ملكية معروفة.

وأصبح الناس يُعرفون بأراضيهم ومراعيهم، ولم يعد الإنسان ذاك الذي لا كلب ولا ذئب.

لا كلب ولا ذئب؟!

الناس الجادون اعتبروا ذلك كفرًا، والناس الهازلون اعتبروه موضة قديمة.

27-وصفة للتخلص من النمل

النمل نوعان:

نمل له مدينة، ونمل بلا مدينة

النمل الذي له مدينة لن يحتاجنا

والنمل الذي ليست له مدينة يحتاج إلى مهندسين

أبيدوا النمل بذكاء

دوسوا على قُراه واتركوه خارجًا

الأغبياء فقط هم الذين يقتلون النمل ويتركون حضارتَه.

28-(وَرْ)

كان قانون (الصواب) يحكم الناس، وهو لم يختلف جوهريًا عن قانون العاو الذي تم لأجل دعمه تقديسُ الأم، وكان الحال يمكن أن يستمر على هذا.

لكن الرجل بطبيعة الحال هو مَن كان يملك أدوات الصيد وأراضي الرعي وقطعان الدواب، فإذا مات الرجل آلت الملكية إلى ابنته المقدسة وليس لابنه غير المقدس.

وكانت الإناث بطبيعة الحال قليلات الخبرة في إدارة الملكية مقارنةً بالرجال الذين يباشرون العمل، فانهارت ثروات الأسر.

وثارت الناس على عقيدة تقديس الأنثى، ووقفت الأم الكبرى وحدها أمام الطوفان.

وكانت هذه أول ثورة في التاريخ.

لن ينسى البشر أبدًا هذا الموقف.

ثم تم تعيين رجل مكانها، باعتباره مقدسًا، وبالتالي باعتباره وارثًا.

-لكنه غير مقدّس.

-لكنه أقوى وأحكم وأرقى خلقًا.

- لم نعرف شيئًا مِن هذا.

-لكن هذا (ضروري).

-ما معنى ضروري؟

-لولاه لاختل كل شيء وضاعت القبيلة.

-ولماذا يجب أن يكون الرجل أقوى وأحكم وأرقى خلقًا؟

-لأنه غير مقدس، ألا ترى هذا معي؟

29- وصفة لاستئناس النمل

لكي يسكن النمل مدينتنا اصنعوا له مدينة

بشرط ألا تكون مثل مدينته الأولى

لو كانت مثلها لما احتاج إلى مهندسين

ولكي يسكن مدينتنا إلى الأبد لا تتركوا فيه مهندسي المدن

علموه هندسةً أخرى

علموه قوانينَ أخرى

من الغباء أن تقتلوا النملات اللائي يدْرسن الهندسة.

30-زفافٌ جماعيّ

بعد الثورة حدث اختلال مخيف كان علينا أن نتوقعه.

لم يعد أحد يعترف بطفل من صلبه، وكادت القبيلة أن تنهار.

هنا قرر شيخ القبيلة ابتداع نظام جديد:

-سنتزوّج.

-ما معنى نتزوج؟

-أن يتقابل الرجال والنساء بشكل معلن، بحيث نعرف جميعًا أطفالهما بعد ذلك، بشرط ألا يشترك رجلان في امرأة واحدة، وبالتالي لن تكون بنا حاجة إلى شهادة المرأة.

-وهل يجوز أن يتقابل رجل مع أكثر من امرأة؟

-يجوز لأنه لن يؤدي إلى اختلاط النَّسب.

-فلنتزوج إذن مادمنا سنحظى بأي عدد من النساء.

-انتظر، لا تقل ذلك، وعليك أيضًا أن تعلم بناتك أن الزواج مصير، وأن الرجل مقدس، وأن الخيْر طاعة.

-هل إذا فعلتُ هذا أتزوج؟

-ستعتبرك أي عائلة رجلاً فاضلاً أيها الأحمق وستتزوج من بناتها.

31-القناع

هل عرف الناس (الصواب)؟

عرفوه يا 1,000,000

هل يفعل الناس الصواب؟

يفعلونه يا 1,000,000

كيف نضمن ألا (يخرجوا) عليه؟

قل لنا يا 1,000,000

خذوا من ملامحهم

خذوا العينين الغاضبتين

والبسمة الرحيمة

ارسموهما على نسيج واحد

وأغلِقوا به السماء

ألبِسوا السماءَ قناعَ البَشر.

32-(هـ)

-(هـ)؟

-(هـ) قوي لكنه أقوى منا

عظيم لكنه أعظم منا

غاضب لكنه أكثر غضبًا منا

طيب لكنه أكثر طيبة منا

لو كان له جسد لكان أكبر منا

له عينان لكنهما أقوى من عيوننا

وأذنان لكنهما أقوى من آذاننا

وكلام أجمل وأحكم من كلامنا

إنه (هـ) الذي ننزف أرواحنا حين ننطق باسمه

والذي باسمه سننال مِن كل مَن يخرج على الصواب

(هـ) هو الخير وإليه سنرجع

مثلما (هو) هو الشر ومنه سنفرّ

ونحن بينهما إما أقرب لهذا أو لهذا

أعرفتم أين نحن أخيرًا وإلى أين سنكون؟

33-التاريخ

علِّموهم الكتابة

الكتابة فقط وليس القراءة

القراءة تمسح المكتوب

وتجعله بلا قيمة

الآن..

هذا هو آخر ما عليكم

الآن الجسد سيصير كلمة.

34-(الـ)مَعْنَى

لا يعرف أحد بالضبط مَن اخترع الكتابة، لكنها لو لم تلاقِ هوًى في نفوس الجميع لما انتشرت وبقيت، وقد وجد الناس أنها ذات فائدة عظمى لحفظ الشرائع بعد أن كثرت وتعقدت، وتدوين العقائد والتاريخ، إضافةً إلى سبب أهم هو توثيق العقود التجارية والملكيات وعقود الزواج التي هي أيضًا عقود ملكية من نوعٍ ما.

انتشرت الكتابة بشدة وسط احتفاء رهيب بها، انتشرت بالضبط كانتشار الهاتف المحمول والسلع التكنولوجية في أيامنا، وتفنن الكَتَبَة في الإضافة إليها وتعديلها، إضافة قاعدة نحوية، أو كلمة، أو تعديل خطّ، أو حرف، تمامًا كإضافة كاميرا أو مسجّل أو راديو إلى أجهزة المحمول اليوم، ولم يفطن الناس إلى الخدعة الأصيلة في طبيعة الكتابة.

سوف يكتب قليل جدًا من الناس، وسوف يقرأ قليل جدًا منهم.

فماذا ستكون فائدة الكتابة إذن؟

المعنىٰ.

سيتجسد المعنى كأنه رجل شرطة يسير بعصاه على رءوس الناس، وسيتحول إلى قانون أو عرف أو أخلاق، ثم يصير نظامًا ودستورًا ودولة، ورغم عشرات الإمكانيات التي يحبل بها النصّ إلا أن الناس العقيمة لن تقرأ، وإذا قرأ أحد اتهمه الباقون بالسفسطة والتعالي وربما المروق والانحراف، وبالتالي تظل النسبة السابقة ثابتة، أو الثابتة سابقة: (قليل يكتب: قليل يقرأ) كما هي، رغم شعارات العلم والتقدم، ووزارات التربية والتعليم.

35-نهاية التاريخ

اليوم اكتمل عملنا

لقد اخترع الناس المعنى

شكرًا لهم

شكرًا لكم أنتم لأنكم صبرتم على مهمتكم الصعبة

الآن انعموا بأبوتكم وأمومتكم للبشرية

انعموا بها إلى الأبد

لأن البشر سيظلون أطفالاً لا يخرجون من (البيضة)

وإذا خرجوا منها ضعوهم في (القفص)

ولو خرجوا من القفص ضعوهم في (التاريخ)

وأغلِقوا عليهم بالـ(معنى)

شكرًا

لقد سعدتُ بالتعاون معكم.

36-يدٌ متّصلة في عجين لا يختمر

هكذا انتهى التاريخ.

يحسب الناس أن التاريخ بدأ بالكتابة، أو على هذا اصطلحوا.

لكن التاريخ–باعتباره صيرورة ومجرى يتبدّل في كل لحظة–انتهى فعليًا مع الكتابة.

لقد ترسّب في أوراق الكتب كالحبر بعد أن يجفّ.

وحملتْه الأوراق إلى الأوراق.

ثم صنع الناس بالرواسب قصورًا ومعابد وسكنوها.

ومرت آلاف السنين.

مجرد استنساخ لطبيعة وعلاقات القُوَى ثم تكرارها في مسارات متصلة.

بالضبط كما تضغط بيدك على كتلة عجين، وتحفر فيها يدًا متصلة ثلاثية الأبعاد دون أن تحرك أصابعك.

التاريخ أيضًا يد متصلة في عجين اللحم البشري، لكنها رباعية الأبعاد مع إضافة الزمن.

على أية حال فالعجين لا يتغير في الحالتين.

وكان من الطبيعي أن يفكّر البعض في تخمير التاريخ.

37-حَربُ القِردَة

كما كانت النبوءة، لم تنس القردة المثقفة ثأرها مع (الشعب)، لم تنس أنها استُبعدتْ كالعدوى كي لا تمرضه، وظل الشعب يحتقر المثقفين، والمثقفون يحتقرون الشعب، وبرغم تشابه حال الشعب وحال القردة المثقفة في كثير من النواحي، إلا أن حال المثقفين اختلفت من عدة زوايا هامة:

أولاً: كانوا يشعرون بالنبذ لا الاصطفاء.

ثانيًا: لم يكن لديهم (هو).

ثالثًا: لم يكن لديهم (هـ)، بل (ههههه...).

رابعًا: (وهو نتيجة لما سبق): لم يكن لديهم تجسيد ثابت للشر في (هو)، ولا للخير في (هـ).

خامسًا: لم يكن لديهم ما عُرف بالروح.

سادسًا: لم ينظروا إلى أبي البشرية باعتباره خاطئًا.

لكلّ هذا حدثَ كل هذا:

أولاً: صاروا أكثر رغبة في التفوق واحتقار الضعف.

ثانيًا: ظلت لديهم معايير الخير والشر نسبية، مما دعم النقطة السابقة دعمًا قويًا.

ثالثًا: لم تكن لديهم أي ظلال لفكرة الخطيئة الأصلية سواء في التاريخ البشري أو الفطرة البشرية.

وتلك النقاط الثلاث صببن في نقطة واحدة هي: النسبية الأخلاقية مع مطلقيّة السعي إلى التفوق.

مما سمح بتشظّي المعرفة في كل اتجاه ومذهب، صحيح أنهم تعلموا الكتابة من (الشعب)، إلا أنهم استخدموها بشكل أكثر إيجابية بكثير، عكس حال الشعب تمامًا.

فقد راجع القردة المثقفة كل ما سبق من مراحل التاريخ، وأعادوا التفكير في مفهومين:

1-**المنطق**: حين استعادوا المحادثة:

-من قال هذا؟

-هذا (منطقي).

-ما معنى منطقي؟

-التفسير الوحيد الممكن. (فصل 22)

2-**الضرورة**: وذلك حين استعادوا المحادثة:

- لم نعرف شيئًا مِن هذا.

-لكن هذا (ضروري).

-ما معنى ضروري؟

-لولاه لاختل كل شيء وضاعت القبيلة. (فصل 28)

واستنتج المثقفون أن المنطق-في هذا السياق-يعمل عكس الضرورة أحيانًا، وبخلافها دائمًا، فالمنطق استنباط محايد نظري، أما الضرورة-في المحادثة السابقة-فهي أداة نظرية لتحقيق منفعة عملية.

ووجدوا أن خطأ الشعب كله يتلخص في أنهم بدءوا من المفهوم الأول لينتهوا إلى الثاني، بل استعملوا الأول ما دام يخدم الثاني، أي ما دام يخدم مصالح السائدين منهم عليهم بالدرجة الأولى.

وهنا كشفت القردة المثقفة عورة الشعب.

أن كل ما يدعونه من (خير)، و(شر)، و(روح)، و(هو)، و(هـ)، و(كتابة)، و(معنى) ليست إلا مبررات لأفعال ومصالح قوَى بعينها.

نهض القرد المثقف فوق صخرته في الجبلاية، وصاح في غضب:
–هؤلاء مزيَّفون، مزيَّفون.

38-الآلة

كان من الطبيعي أن يكون أول عمل ثوري للقردة المثقفة هو صناعة آلة Organon تحفظ للمنطق كينونته الحقيقية باعتباره استنتاجًا محايدًا، وتختبره وفق مقاييس ثابتة، برغم طابع النسبية القيمية الشائع الذي رأيناه، وهكذا زرع القرودُ النخيلَ على جزر متحركة في بحر هائج، وهي المعجزة التي لم يتصورها الشعب.

نظر أحد كَتبَة الشعب إلى هذه الآلة وفكّر..

إن اتباع الاستنتاجات المحايدة باستمرار يصل بنا إلى حقائق صحيحة وصادقة فعلاً، لكن المشكلة أنها ستكون قليلة جدًا، لن تخبرنا بأي شيء حول (الصواب)، و(الخير)، و(الشر)، و(الروح)، و(هو)، و(هـ)، مما سيؤدي إلى انهيار كل ما بنيناه.

ليست المشكلة فقط في الانهيار، بل في صعود قوى جديدة.
سنكون نحن والقردة سواء.
نحن والنساء سواء.
نحن والفقراء سواء.
نحن وغيرنا سواء.
وهنا.. فكّر الكاتب أن يستدعي (هـ).
المفروض أن (هـ) هو الذي يستدعي من يشاء طبقًا لتصورهم عنه.
لكن العكس هو ما يحدث غالبًا.

واستطاع عن طريق (هـ) أن يحطّم الآلة باعتبارها مضللة وفاسدة، وقادرة على إلغاء وجود (هـ) نفسه.

لم يسبق لأحد أن هزم (هـ).

39-الطين

قبضَ أحد القرود قبضةً من الطين، ورفعها صائحًا:
-فلنفضح كائناتهم التي لم يرها أحد، الحقيقة هي ما نجده في أيدينا.

وحين سمع الكاتب هذا الكلام فكّر..

لو انتشر هذا لتبخّرتْ (الروح)، و(هو)، و(هـ)، وتحطم كل شيء.

ومرة أخرى حكّ الكاتب مصباحه ليصعد (هـ).

ضرب (هـ) قبضة القرد فتناثر الطين على وجهه ووجوه القردة الذين تصايحوا وتقافزوا في الجبلاية، فصفق لهم أطفال الشعب في الرحلة المدرسية، ورموا لهم بالفول السوداني والموز.

40-رَوْ-وَرْ

صاح أحد القردة:

-ما دمنا لم ننجح في غزوهم بآلتنا، ولا في نقض أبنيتهم الشفافة بقذفها بالطين، دعونا نقدم لهم التفسير الحقيقي لما هم عليه.

-التفسير الحقيقي هو: الثروة.

-الثروة التي تجانستْ معها الثورة، والتي بسببها صارت المرأة قِرْدة مثلنا.

سمع الكاتب هذا الكلام، وأعدّ لنفسه كوبًا من الشاي الثقيل، وقضى الليل يفكّر..

لو افترضنا أن عرف الناس هذا سيعود كل شيء إلى أصله، كل شيء مِلك لكل أحد، وبالتالي ليس مِلكًا لأحد، ولتغيَّر مفهوم (البشر) أصلاً، وربما عاد إلى ما كان عليه في عهد العاو البغيض.

كما أن المرأة ستشارك الرجل في كل شيء، ويفقد الرجل الخادمة والطاهية والمربية والمرضعة المجانية، والتي أحيانًا تلعب دور الممرضة والغانية.
راجعَ الكاتب الفصلين: 26-28، وتأكدَ له هذا.

إذن الحل استدعاء (هـ)، لكن المهمة أصعب قليلاً هذه المرة، نحتاج أيضًا إلى تحريكه، ربما يمكننا ذلك بعجلات كبيرة عريضة كالبلدوزر نستوردها من القردة المثقفة التي صنعت كل شيء.

جاء (هـ) ووضعه الكتبة في مواجهة القردة، فظن الناس أن القردة تريد مهاجمة (هـ) نفسه الذي يحركه الكتبة في خفية، فرفضوا كل ما قام به القردة من تفاسير معقدة ومحاولات لإقناعهم.

ظلت القردة تقفز وتضرب برءوسها وأرجلها الأرض من الغيظ، فظنها الناس تلعب وظلوا يضحكون.

41-الأظافر

نهض قرد عنيد، وهتف:

-هناك حل آخر، نفضحهم ونقشّر عليهم الخير والشر، نكشف ما تحت جلودهم من صراعات الدم واللحم.

-نبين لهم أن خيرهم ما هو إلا مصلحة القوي فيهم، والتي تقنّعت بماكياج الفضيلة والجمال، كالعاهرة المنقّبة والعجوز المتبرّجة.

تنهد الكاتب في عمق، وظل يتأمل..

لو فقد الناس المعنى الثابت المتجسد للخير والشر لانقلب كثير من المعايير، سيعود عهد العاو الذي نخاف منه، سيعود معنى (الأفضل) و(البشر) إلى ما كان عليه قديمًا جدًا، وسيتحرر الناس من الكهنوت واللاهوت والجبروت والرحموت والملكوت.

ظل الكاتب يردد بدون وعي: وُوت، وُوت، وُوت!!

ثم تنبّه فقال:

-يجب تقليم أظافر القردة.

استعان الكاتب بـ(هـ)، وكان له ما أراد، لكن من أجل القضاء على الخطر جذريًا ضغط الكاتب عليه لكي ينزع أظافر القردة أصلاً، استبشع (هـ) هذا الطلب، هذا

أسلوب تعذيب يا كاتب، لقد صرتَ دمويًا، شكرًا يا (هـ)، لكنني أعرف ما أفعله، المشاكل الدموية تستدعي حلولاً دموية.

ظلت القردة تبكي نهارًا وليلاً وأيديها وأرجلها دامية، هذه المرة لم يضحك أحد من أطفال الرحلة.

42-صَلْصَالوطيقا

كان القرد يبكي بالدم، ازدرد دموعه واستنشقها، وقال:

– لم يبقَ سوى حل وحيد.

–إهئ.. إهئ، قد جربنا كل شيء: الآلة، والطين، و(رْوَ–وْرَ)، والأظافر، ماذا بقي؟

–الصلصال.

–هل سيجدي؟

–إهئ، سنحاول يا زميل، سنعيد ترطيب الحِبر، سيبدل الحبر أشكاله إلى ما لا نهاية، ويصير للكتابة كل معنى.

استمعَ الكاتب إلى هذا وقبض على قلبه، سبّ ولعن، ثم ظل يفكر محمومًا، لو حدث هذا لما صار على الناس أصلاً تعلم القراءة ليخرجوا على التاريخ، لأنه لن تكون هناك أهمية للكتابة، ثم تنهار الأبنية المستنسَخة في عجين التاريخ، وهي كارثة لا حل لها.

استعان بـ(هـ)، فجاء (هـ) وجفّف السحب والبحار والأنهار وغدد اللعاب، ظلت القردة في قيظ الظهيرة راقدة على ظهورها على الصخرة تنضجها الشمس، حتى مات أكثرها، ومَن عاش بقيَ في قفص انفرادي يصيح ويعوي كي يظفر من الأطفال ببعض الموز.

43-اللعنة

وقف فتى وفتاة شابان جوار القفص، وقال الفتى:

-هذا القرد يشبهك، خاصةً في حركات يديكِ..!

فنظرتْ له الفتاة في دهشة غاضبة، حتى القرد شعر بالخجل، لكنه اشتعلَ بمشاعر معقدة، الخجل لأجل الفتاة، لأجل الفتى، مِن الفتى والفتاة، الغضب، الغضب، الغضب، ملعون يا موز، ملعون يا فول!

وفي ثانية كان قد أفرغ دفقة ملتهبة من مثانته عليهما.

44-ضوء 1,000,000 ت

كان الكاتب قد فرغ من آخر صفحات كتابه الأخير، ففرد ظهره على فراشه في راحة ضمير، أطفأ المصباح، وبدأ يذوب.

هنا.. شقّ الظلامَ ضوء باهر حادّ، كسيْفٍ من المعدن البراق، ارتجف الكاتب وتمسّك بغطائه تلقائيًا، ولم يقدر على النهوض من المفاجأة.

وفي ظلام الحجرة الثقيل بدأ يتكاثف شيء، شيء مهول له ذراعان ومخالب وقرون وعينان بارقتان، نشأ في تدرّج سريع مذهل من الظلام نفسه، ثم تقدم نحو الكاتب حتى صار على رأسه رافعًا ذراعيه، وبصوت عميق مدوٍّ قال:

-عاوّوو..!

-أنت؟! كـ.. كـ.. كيف عدتَ؟

-العاوّ لا يموت يا مولانا

لا يموت.

-...............!

تمت


–2–
مُشْعِرَاتٌ

1–القهوة السويدية

قابلتُه في أحد المؤتمرات الدولية، لم يعرف أحد الدولة التي كان يمثلها، أو اللكنة التي كان يتكلم بها الإنجليزية، ألقى أبحاثًا عجيبة، ورد على الأسئلة بإجاباتٍ مُخرِسة، ثم جلس على المقهى أمام البحر، يدخّن ويجرع القهوة السويدية الخفيفة المرّة.

كنت لا أتحمل المرارة في شبابي، ولهذا لم أكن أحب القهوة.

جالسته عدة مرات، كان يصمت حتى ينتهي سيجاره متأملاً ما يخلقه من عوالم الدخان التي تمتد دون أيدٍ في الفراغ، ثم يبتسم ابتسامته الغامضة، ويقول في حنان:
–أنت شابٌّ وفتيّ، ولهذا تبدو لك الأشياء الحلوة حلوةً، والأشياء المرّة مرّةً.

يجرع من فنجانه كأنه يملأ من القهوة القلبَ مردفًا:
–ويومًا ستفهم أن القهوة السويدية هي أفضل قهوة في الكون.

ووضع فنجانه بحركة حاسمة، نظر لي بعينين صريحتين، وهمس:
–ستراني، ستراني.
وحين نهض راحلاً عرفت مَن هو.

2-الجميل والبحر

أمام بحر الشمال الأسطوري شعرت أنني فاتن، كانت فتاتي التي تكبَرني ببضعة أعوام تقول أنني لو شئتُ أن أغوي امرأةً فما عليّ إلا أن أبتسم.

ذلك أنني لم أكن أبتسم.

مزّقْ أيها البحر بشرتك الشفافة كما تشاء، وانزف منها كل مخلوقاتك الخرافية، واكسُ بجلدك أعضاء العراء، اركب السفن وارتدِ الأشرعة، اغسل هيكل الأرض الحجريّ مما تبقى حوله من لحم البشر.

افعلْ هذا مرةً كل يوم.
أو أكثر من مرة.
لن تخيفني لأنني أبتسم.

3-الشجرة

قال لي:
-أنت شابٌّ وفتيّ، ولهذا فسوف تغويك امرأة، وسيمفونية، وقصيدة شعر.

احذر الأثواب لأن النساء لا يحتجن إلى عيون.
تعلم كيف تغمض أذنك كما تغمض عينك.

الشِّعر مكروهٌ بعد الخليقة وحرامٌ قبل الخلود.
سأعرف أنك أكلت من المرأة حين تلطّخك الأجنّة.
وأنك شربت من السيمفونية حين تبللك الدموع.
وأنك سكنت القصيدة حين يقشعرّ جلدك كالصوف المنفوش.
حين يبدو عليك كمعطفٍ.
حين يبدو عليك كمعطفٍ ليس معطفَك.

4-الإنجيل

فتحتُ صفحة الجريدة، فوجدتُ مقاله:
-لي جريدة واحدة، يتغير العالم وهي هي، تزول السموات والأرض وهي لا تزول، في البدء كانت الجريدة، والجريدة صارت جسدًا، والجسد أحفظه في الأرض مُحنّطًا، وفي السماء في ثلاجة، وبين السماءِ والأرض في كواكب بحارها وأمطارها من الفورمالين.

5-الثالوث

قال البحر:
-دعك منه ومِن المرأة.

قلتُ:
-أنا معك امرأة، ومع المرأة رجل، ومعه طفل.
وأنت معي وحش، ومع المرأة امرأة أخرى، ومعه بحر.

وهو معك هو، ومع المرأة هو، ومعي هو.

فليكن هو هو

وأنت بحرًا

وأنا–يا بحر–طفلاً.

6–غريزة أساسية

لما ترهّل جلدي، وصرت أجرّه خلفي، وألملمه حول وسطي، وأدسّه في النطاق، عرفني، واتهمني، وغفر لي، وقال:

–ستصدق في الخطايا القادمة أن الجلد كائن حي، وأنه قد يهجرك في الجحيم، ويصحبك في النعيم، لا تغسله ولا تنشره إلا تحت سطح الليل.

لم أسمع البقية لأن الجلد كان يخفق كالثوب الذي تعصف به الريح على مشجب.

تلفّتُّ حولي، فرأيت جلد امرأة معلقًا على مشجبٍ آخَر، وصاحِبته جالسةٌ في الركن تقرأ ديوانًا لفكتور هوجو.

7–لا شيؤنا

بعد أن أكلتُ غطّيتُ المرأة التي ابتسمت لي، فرأيت بين شفتيها علامات أسناني التي قضمتها بها مرةً واحدةً.

همست لي:

-لا شيء سيعرى الآن.

لا شيء سيطفئك.

لا شيء سَ..

منذ الآن..

لا شيء شيءٌ.

لا شيء لا.

كان جسمها يتغير إلى لونٍ داكنٍ وهو مكشوفٌ في الهواء، ومجروحٌ.

8-الإبريق

بعد أن شربت غطيت الإبريق الذي يريد أن ينكسر، حاول السقوط كثيرًا لكنني كنت ألقطه، وأضع حول المنضدة الوسائدَ، وأربّي حيوان الإسفنج، وحين يئس تكوّر وانغلق وصار كرةً من البلور وثمرةً من الماء الذي تحميه قشرة الزجاج، وحين شقني العطش ولم أستطع كسره ألقيته على الأرض، لكن الإسفنج كان قد استعمر العالم، ضربته بيدي، لكن الإسفنج صار قفازًا وثوبًا وحذاءً وقبعةً وقناعًا.

كنت أكسره ولا أكسر شيئًا.

وكان كل شيء يكسرني ينكسر.

لكن الإبريق شقَّ بالعطش كل شيء.

ونبَّتَ أباريق صغيرةً في كل منها قطرة تنزف من حَلْق العالم.

9-على الطراز القديم

بعد أن سكنتُ قال الجِلد:

-منذ الآن هذا البيت جِلدُك، الشتاء القادم سيسقي كل الفصول، اختر لك بيتًا ثقيلاً ولا تحرص على اتّباع الموضة.

بعد أن تركني جاءني الكهربائي يعتذر حين أصاب وريدًا في علبة الكهرباء.

10-الألسن

سألني حين علّقت على لكنته العجيبة:

-كم لغةً تجيد؟

-تعلمت ثمانية ألسن ولم أجد منها سوى اثنين.

أشعل سيجاره الخامد دون نار، عاد يخلق من الدخان ماكيتّات العوالم القادمة بعين منتقِدة، ثم قال بلكنة يتصاعد منها الغيم:

-لا تنس العربية لأنها العجين الذي يربط أحجار مسجدي السيدة والحسين، لا تنس الإنجليزية لأنها لغة من لا لسان له، لا تنس الألمانية لأنها لغة الشيطان، لا تنس الفرنسية لأنها تصبغ الشفاهَ بلون الأحبّة المفضّل، لا تنس الإيطالية لأنها لغة النجوم ومدوَّنات الموسيقى الكلاسيكية، لا تنس اللاتينية لأنها محفورة في كبد كل حجر من أحجار كنائس العصور الوسطى المقدسة، لا تنس اليونانية لأنها لغة آلهة الإغريق التي كانت أذكى من أن تعيد خلق من خلقوهم ليخلقوهم، لا تنس الفارسية لأنها لغة

ملائكة الموت الذين قد تحتاج للتفاوض معهم، ولا تنس القشعريرة لأنها أصل اللغات، وبها تستطيع التفاهم في المؤتمرات الكونية، وورش العمل السماوية.

11- كُورْس

حاولت فهم سر هذه اللغة، فتحت كتاب قواعد ومعجمًا ومحبرةً منتفخة بجنين الفكر المحفوظ في الحبر، وجلست في دفء المقهى أدرس على وهج الشمس التي تشرق من الفحم، وشعاع الشمس الذي يطل مع كل ريحٍ بين طيات الغيوم المتفحّمة، قال دون أن يلتفت إلى شيء أو مكان أو زمان:

-اللغة تحتاج إلى ممارسة، إذا أردت تعلمها ابحث عني ساعة الفجر، انظر لي كما لم ينظر الناس، سأرفع رأسي من البحر في آخر ساعة من الليل، انزفْ من قدميك الحافيتين على الصخور، انزلقْ فوق الطحلب الشرير المتربّص، اسمعْ وسوسة سرطانات البحر وهي تمرق بين قدميك في الظلام، تجمدْ من البرد، اختنق من سكين الريح الصرصر التي تذبحك، ابحثْ عن أي ضوء ثم اعرف أنك الآن أعمى، ابحثْ عن أي أحد ثم اعرفْ أنك الآن الوحيد الذي عثرتَ عليه، احتضنْ ضلوعك بذراعيك لتعرف أنك بلا ذراعين، قفْ قبل المزيد من التورط لتعرف أنك بلا رجلين، حينئذٍ ستجيد هذه اللغة، سيان أن أعذبك أو أرحمك ما دمتَ تنشد الرهبة.

12- المقشعِرّات

بعد أن تعلمت اللغة دار كل ما دار من حديث بيني والبحر، وتركني الجِلد، ثم صرت أجده أحيانًا متطحلبًا مقشعرًّا على الصخور الرطبة وسط إخوته من الطحالب المقشعرّات.

13-اغتراب

قالت لي فتاتي التي تكبَرني بأعوام:

-لا تكتفِ بالدراسة في الجامعات المحلية، أنت تجيد لغةً قديمة يتكلمها الطحلب ولحاء الشجر وجِلدنا غير العاقل، عليك أن تتابع برامج المنح الأجنبية.

-أنا هارب من جلدي، وسأسافر إلى جلدك، حتى لو كانت تكاليف الروح عالية هناك، لو لم أجد ثوبًا يظللني سأكتفي بالمبيت بين حدائق الزغب وضفاف العروق.

14-تمارين صوتية

-أريدها

(أعلى قليلاً)

-أريدها

(بوحشيّة)

-أُأُأُأُريدها

(بعاطفية)

-أريييدها

(بفخامة)

-أريدهاااا

(بسخرية)

-أرّرّرّريدها

(بموت)

-أريدُدُدُدُها

(شكرًا شكرًا- تصفيق)

15-الموسم

حاولتُ كثيرًا لكن جلدها كان يتقشر عني في كل مرة، كانت تلفظني وتطرحني مثل الثمرة، فشعرت نحوها شعوري نحو الشجرة.

كلما مرّ جوارنا رجل أو امرأة جمعني في جيبه أو جمعتني في حجرها.

الفلاحون يحسبونني نبتًا مستوردًا، والمهندسون الزراعيون يحسبونني مُخَلَّقًا وراثيًا.

تشبثت بحضنها لكن فروعها كانت تهتز كثيرًا.

سقطت على الأرض قبل أن أنضج، أخضر، ليس لي جذور، لست مُتَدَرِّنًا كغيري ممن لهم تجارب عاطفية، وليس بي بذور لأُبعث من الأرض بعد أن أموت وأتحلل وأُدفَن في التربة.

16-كوميديا سوداء

أريدهاهاهاها

هاها هاها

ها هاهاها

هاهاها ها

ها ها ها ها

هـ هـ هـ هـ اااا

آااا هـ هـ هـ هـ

(شكرًا شكرًا- تصفيق)

17-ديوان في رواية

كان ظلٌّ يتموَّجْ

كان ليلٌ،

وصراخُ الريح يُطفي كلَّ نجمٍ ،

كلَّ وَمْضٍ

في العيونْ

وأنا كنتُ..

وكانتْ

-من زمانٍ -

لمسةٌ لي

خاصّةٌ

حين أكونْ

حين أخرُجْ

واقفًا مستعرضًا فيّ الإرادهْ

كان رأسي في الوسادهْ

غير أنّ الحلمَ حولي كان يُنسَجْ

كنت أغلي داخلي تحت الجفونْ

وضلوعي..تتثلّجْ.!

* * *

كان جسمي يتشنّجْ

وسريري ظل يهذي في انقباضات الولادهْ

كنتُ أغلي حولَ عظمي

صانعًا منّي حساءً

فوق نار الحلم أطهيني مرارًا كلَّ يومٍ مِن سنينْ

غير أني لستُ أنضُجْ.!

* * *

كل عضوٍ يتلوّى في المواجعْ

باحثًا عني كأعمَى

لاعقًا منّي كجائعْ

غارفًا منّي الصحونْ

كنت أغلي تحت جلدي بالفقاقعْ

وأفور الآنَ حولي

دون شيءٍ يحتوينْ

دون شيءٍ

أيِّ شيءٍ

يحتوينْ.!

* * *

في الصباح المتحشرجْ

بين غيمٍ يتلوّى في سماء الغائمينْ

كنت أرفو سطحَ جلدي،

ثم أمحو كلَّ ما فارَ عليهِ

من منامٍ بالغ البعدِ ،

ومزعِجْ

وعلى مائدة الإفطار عدتُ الآنَ شخصًا ما جديدًا،

كلُّ شيءٍ صار أبهَجْ

غير أني حين عريتُ طعامي

كان في الأطباقِ جلدٌ مقشعرٌّ

بانتظار الآكلينْ.!

18-نَقْدٌ

ترك بصماته على كل شيءٍ أعمالاً فنية، عدل من وضع الفحم الذي كان يلتهب في مودة وبراءة بأصابع تتمسح فيها النار كالقطة الصغيرة، وقال في خبرة:

-القوافي تخدش في الجلد كالأظافر لكنها لا تنغرس فيه، اترك الأظافر مرتشقة في جلد المستمعين أفضل، خلخِلْها قبل الإلقاء، أما البحر فهو مالح لا يطفئ العطش، أقترح عليك أن تدع بحور الشعر وتتعلم أنهاره، فتربتها أكثر خصوبة حول المصبّات وما يليها من أذن وُسطَى وداخلية.

19-كتابٌ في رواية

- المرأة ليست دائمًا شجرة، ليس لأنها بلا جذور وجذع وفروع وأوراق وأزهار ولحاء، بل لأن الرجل ليس دائمًا ثمرة.
- المرأة لم تعد مخلوقًا جميلاً، في عصر ما بعد الحداثة وتفكك النظريات.. المرأة صارت مخلوقًا غزيرًا.
- الغزارة مقولة شعورية أوليّة تعبر عن الكمّ، والأطفال فقط هم الذين يفهمونها، في حين يُعدّ الكيف من أعراض البلوغ.
- الغزارة هي البحر العظيم الراكد الذي تسبح على سطحه الجلود المتطحلبة، والطحالب المتجلّدة، لا يبدو سطح مائه من اكتمال بشرته، القشعريرة هي الموج، وأنا أجيد السباحة.
- الأطفال كذلك يجيدونها.

20-مناقشة

أعاد بأصابعه التي تضيء في اللهب قططَ النار الصغيرات إلى جحرهن في وهج الفحم، وذلك قبل أن يحلّ الليل رمادًا في الجمرة، وقال باهتمام:

-تأثير الفكر البشري يظهر بقوة في الفصلين 1-2، لكن الأصالة تبدو في الفصول التالية، أختلف معك في أن المرأة لم تعد مخلوقًا جميلاً، أعتقد أنها لم تعد مخلوقًا، لكنه اختلاف في وجهات النظر على كل حال.

-أشكرك يا سيدي على اهتمامك، وما أضعته معي من الأبدية.

21-الخُلول

قلبي بين رئتيّ كاللب بين دفتي المحارة، قلبي كائنٌ رخو يخرج أحيانًا ليتمشّى على كل شيء ليحس مباشرة، وأحيانًا يصطاده الناس كي يأكلوه، يفرغونه في الطبق ويرشّون عليه الملح، لكنه يهرب دائمًا، ولهذا يعود إليّ أحيانًا حامِيًا أكاد لا أحتمله.

22-القنديل

اقترحت عليّ فتاتي التي كانت تكبَرني أن أربّي قلبي في حوض زجاجيّ كيلا يهرب، قمت بهذا لكنه أزاد اكتئابي، شعر قلبي بالحبسة والوحدة، ربيت معه بعض الأسماك وانتظرت، لكنه نبذها وهي تتساءل عن سلوكه المنطوي المستمرّ، صنعتُ له لعبًا ونباتات مائية، لكنه تركها إلى ركن الحوض، لقد أدرك كينونته الحقيقية أخيرًا، ظلّ يسبح في الحوض على الجدران والأطراف، وحيدًا.. شفافًا.. سامًّا، وأدهشني أنه يضيء.

23-المرجان

لما غمر الطوفان البلد بقيت في منزلي ولم أخرج، إنه طوفان وسيمرّ، طوفانٌ عاديّ سوف تكتب عنه كل الحضارات ويرد في الكتب المقدسة ويُفني البشرية كلها، عشت عشرات السنين حتى انسحب الماء، الحوائط الحجرية الصلبة المتشعبة والزاهية كانت تحميني من المتطفلين، وكادت أن تُغرق السفينة الوحيدة بكل ما عليها من متاحف الكائنات البرية.

24-الحفريّة

بعد آلاف السنين جاء النقاد والباحثون، ينقّبون في قمة الجبل التي كانت قاع بحر، بدوتُ لهم بين صفحتين وردةً جافةً كانت يومًا يانعة بين حبيبين شيخَيْن، كانت ألواني زالت ومنظاري الطبيّ تآكل، فبدوت لهم بالضبط كصورتي في بطاقة الرقم القومي، أبيض وأسود ومنطفئًا ولا أَرى بوضوح، وجواري رأس توت عنخ آمون اللامع الملوّن الذي لا يؤنب ضميرَه أنه صار عميلاً للنظام.

25-موسىٰ

هذا نبيٌّ آخَر، خرج إلى البحر مع بني إسرائيل، جرى خلفه جيش من فراعنة الرسوم المتحركة الذين غادروا أوراق العملة وقِطعها المعدنية وكافة طوابع البريد والرموز الحكومية، وحاولوا منعه.

كانت معه عصا خارقة فيما أذكر.

جاء البحرَ، فرفع عصاه وهوَى ليحفر طريقًا للعبور.

لم يرَ في الظلام الجِلدَ على سطح الماء، وربما حسبه طحالب.

حين صحوت بعد قرون وجدت علامات العصا في جلدي، خطين أزرقين بينهما نجمة سداسية.

لم يغب هذا عن عين الحكومة التي ظلت تضربني بقسوة لتشوّه النجمة وتحاول فكها إلى مثلثين من جهة، ولتطبع في جلدي الفراعنة الزاهين على العملات والطوابع والرموز من جهةٍ أخرى.

26-عيسى

المسيحية ديانة رطبة منخفضة الحرارة تحتاج إلى أقوياء التحمل، أو من كانت لديهم معاطف جلدية سميكة وفراء ساخن.

أدخل الكنائس لأنني أحب مشهد الأطفال يوم الأحد وهم يرتدون ملابس العيد، ولا يفهمون الكلام الكبير في كل الأديان عن الله.

في ذلك الصباح حين انخفضت حرارة المسيحية قرب الصفر كان الأطفال المدثَّرون في الجِلد والفراء يلهون قربي، ولا يعاكسونني لأنني أرتجف وأبدو مريضًا.

في الأحد التالي اشتريت جلدًا سميكًا وكومة من الفراء، وجلستُ فوق النجيل، وضعت الجلد والفراء أمامي، وتربعت أمامهما، وظللت أدفّئ راحتيّ فوقهما، وأدعو الصغار لمشاركتي الدفء، وصاروا يعاكسونني لأنني عاملتهم بأبوة.

27–محمد

الإسلام ديانة مرتفعة الحرارة، ولهذا يحب المسلمون الماء والثلج والبرد.

حين قررت الهجرة إلى أوروبا لم آخذ معي إلا حجرًا صغيرًا كان مدفونًا في الأرض المجاورة لمسجد السيدة، أخذته في حضني ومسحت عليه، وطويت حوله ملابسي، ثم رحلت.

كنت ثمرةً خضراء، لهذا زرعت الحجر فيّ وتركته يجفف عصارتي، يشرب من ضفاف ريقي، لأنني أريد أن أصوم.

علا الأخضر وجه الحجر في البداية، ثم شق قلب الحجر وعمّره بحديقة عظيمة صغيرة جدًا جدًا، فيها كشكُ موسيقى أسمع منه نبضاتٍ كالقلب، وفيها أصوات عيالٍ يتصايحون في لعب الكرة والعسكر والحرامي.

أحب قومي الحجر فأتوني بحجارتهم، وصارت فيها كلها حدائق كثيرة صغيرة جدًا جدًا.

أقنعتهم بدبلوماسية أن يأتوني بحجارة أصنامهم، فصارت لها كلها قلوب من شجر أخضر وزهور، وقامت وغادرتْ الكعبة.

أقنعتهم أن يدخلوني الكعبة، فصار كل حجر منها له قلب من حديقة فيه كشكُ موسيقى وعيالٌ يلعبون، لكن المسلمين لا يسمعون بسبب التكبير أبدًا الموسيقى وأصوات اللعب، برغم أنني نبّهتُ على أهمية ذلك أكثر من مرة.

8–القرآن

أقرؤه أحيانًا لكنه يقرؤني في أكثر الأحيان.

أتعاشق معه كالأرابيسك.

أتنمنم لألعب حول حروفه وبينها، أتقرنص ليسيل عليّ كالعسل حول خلايا النحل الشمعية، أتقبب ليدوّي في داخلي جهوريًا، ستريو، ومضافٌ إليه تأثير الصدى.

يفرد يده على صفحتي، ثم يقبضها، لكنني أسيل دائمًا من بين أصابعه مع صوت خرير.

حين أسمعه كثيرًا تتحول أذناي إلى مقرنصتين مقعرتين من الغضروف، يسيل عليهما العسل.

أنا أخاف النَّحلةَ.

29–الجولة الأولى

كان يجيد اللعب بالبيادق خاصّةً، في حين كنت أحاول تمهيد الساحة من أجل هجوم الوزير.

كان يعرف كل مداخل ومخارج الرقعة، كان يقتم لونه في الأسود حتى لا أراه، ثم يبيضّ تمامًا في الأبيض فلا أميزه، كان يرقّ تمامًا فلا ألاحظ منه انبعاجًا فوق السطح، كما كان يجيد المشي على الخطوط الفاصلة بين المربعات، ويملك القدرة على النفاذ إلى إطار الرقعة فلا أملك حصاره.

مع ذلك لم أستشعر منه الخصومة.
لا أفهم كيف، الأمر أكبر منّي.

كان مَلكُه يقطع مسافات خيالية رغم أنه لم يكسر قواعد اللعبة، ولم يكن أمامي سوى هذا كي لا يحاصرني: مددت يدي، وتغلغلتُ تحت الأبيض والأسود محاولاً تحريك القطع، لكنه لاحظني، فضرب على يدي كي أسحبها، وقال:
–الغش له قواعد، وله ملوك ووزراء وعساكر، في الحكومات العسكرية يجب أن تكون أبيض أو أسود حتى تتماهى، لا تكن مركبًا منفصمًا متناقضًا مبتكِرًا فنانًا، لا تكن إنسانًا وإلا رأوك بمنتهى السهولة.

وفي النهاية وقفت وحدي وسط عساكره وكل هؤلاء الوزراء الذين لم أعرف من أين أتى بهم.

30–الجولة الثانية

كانت القواعد الكثيرة تسد طريقي ولا تترك لي مهربًا، كانت الرقعة تقشعرّ من تحتي، كانت تغتالني، اهتزتْ ثم انفتحت، وأنا أهوِي.

من قاع الهاوية رأيت بيادقه ينظرون في فضول إلى جسمي المحطَّم برءوسهم الصمّاء بدون عيون.

31–الجولة الأخيرة

تركني في قاع الهاوية، دفع حسابه وحسابي، أطفأ سيجاره، رأيته من الهاوية يتأهب للمغادرة ويقول:

–لأنك شاب وفتيّ فسوف تصعد

سوف يهزم شبابُك اليأسَ

سيهزم الوحدة

لأنك شابٌّ وفتيّ

فسوف تهزمني ذات يوم

وسأكون سعيدًا

أنك صرت في يومٍ من الأيام بطلاً

أنك صرت تعبر البحر

وتعبر المرأة..

إليّ

أنك صرتَ بطلاً في سبيلي

ولكن تلك جولةٌ أخرى

سأكون فخورًا بك

ولكن ليس الآن

أمامك هاوية هي الكون

لكنّ الآن ليس

الآن.. ليسُ

وليس الآن (لكنّ)

فليس سوى ليس

ليس سوى ليس.

-تمت-

-3-

الحراشيف

1-الفصل الأول

يتحدث هذا الفصل عن قضية قد لا يكون لك شأن بها، هي أنني لا أستطيع المذاكرة لرسالتي العلمية إلا بالنهار، كما أنني في العادة لا أنام ليلاً، مما يفرض عليّ أن أرتبط بالقهوة ارتباطًا روحيًا محوَّجًا داكنًا. ذكر الدكتور (عبد الرحمن بدوي) في أحد كتبه أن أول من اخترع القهوة هم صوفية الإسلام لكي يتمكنوا من السهر للذكر ليلاً، فهل كانوا يتصورون أن تصبح القهوة مشروب الباحثين الفلسفيين لكي يتمكنوا من المذاكرة نهارًا؟

على أية حال ينتهي هذا الفصل بأنني-لكل ما سبق-كثيرًا ما أغفو أمام الكتب، أغفو لثوانٍ فقط. هذه الرواية بالكامل تحدث في تلك الثواني.

2-الزركشي

"الشيخ العلامة المحقق أفضل المتأخرين، برهان المحققين، كهف الأئمة والفضلاء، زبدة نحارير العلماء، شيخ الإسلام وعمدة فضلاء الزمان، بدر الدين أبو عبد الله محمد ابن الفقير إلى الله تعالى عبد الله الزركشي الشافعي..

"عاش الزركشي 49 عامًا، وقد ألّف في الفقه والأصول والحديث والتفسير والحكمة والمنطق والبلاغة والأدب..

"توفي بالقاهرة.. ودفن بالقرافة الصغرى، بالقرب من تربة الأمير بكتمر الساقي.."[1]

انفتحت البوابة.

حدث هذا عدة مرات، وأظنه يحدث.

لا ضرر منها. إنها دوامة حميدة. وهل هناك دوامات خبيثة؟ وتلك الدوامات الخبيثة.. هل تبتلع دون أن تلفظ؟ أم تنتشر خارج العضو؟ خارج أي عضو؟ خارج العقل؟ خارج الكوكب؟ خارج الكون؟

سأعود مرة أخرى، فلا تقلق.

العلامة المحقق، برهان المحققين، كهف الأئمة والفضلاء، زبدة نحارير العلماء..؟ وكيف يبدو كل هذا؟ هل يبدو ماردًا عملاقًا كمازنجر وجراندايزر؟

كنت أصعد إلى الحارة من الناحية المنخفضة. إن حارتنا لها مدخل منخفض وآخر مرتفع. ولا أظن أنها بهذا الاتساع الأسطوري حاليًا، ولا أظن أنها موجودة حاليًا.

1- بدر الدين بن بهادر بن عبد الله الزركشي الشافعي: البحر المحيط في أصول الفقه، تحرير: عبد القادر عبد الله العافي، مراجعة: عمر سليمان الأشقر (دار الصفوة، الكويت، ط2، 1992م)-تقديم ناقل النص، ص 5.

لكنني كنت طفلاً، وكنت أجدها، وكنت أرى كل شيء خارقًا مهيبًا. لكن.. يا لضخامة هذا الرجل! كان يسد مدخل الحارة تمامًا بجسده، وكان يصرخ فيمن خلفي:

-لن يدخل أحد.

كان العرق يتناثر ووجهه يلتهب بالغضب. فتوة حقيقي. عبرتُ من بين ساقيه إلى داخل الحارة، أما كل مَن خلفي فقَدْ..

هل هذه حقيقة؟ هل هذا عدل؟ لا أدري. رجل يقف بجسده الأعزل أمام جيش، جيش من الأقزام المدججين بالسلاح. تصايحوا:

-جِتْ هِمْ، كِلْ همْ، بْلُو هِمْ أبْ.

دويّ رهيب. الجسد العملاق يتحول إلى مصفأة عملاقة، ثم إلى شبكة عملاقة، والدم فسقيات. دخل الجنود وأشرطتهم الحمراء تجر نجومهم الزرقاء. وحين التفتّ إلى الناحية الأخرى وجدت الرجل نفسه جالسًا في مدخل بيت، وفي الفِناء تجمّع حوله بضع شباب، وكان يقول في هدوء وادع كأن لم يحدث شيء:

-**"الإعجاز يقع عندنا في قراءة كلام الله لا في نفس كلامه على الصحيح من أقاويل أصحابنا، كما قاله الأستاذ أبو منصور في (المقنع)..**"[2]

---

[2] -- بدر الدين بن بهادر بن عبد الله الزركشي الشافعي: البحر المحيط في أصول الفقه، تحرير: عبد القادر عبد الله العافي، مراجعة: عمر سليمان الأشقر (دار الصفوة، الكويت، ط2، 1992م) ص443.

3-البعث

دقات قلبي تتصاعد مرةً أخرى، أعود إلى الحياة، هل سيكون هذا إحساسي عند البعث؟ والأغرب أنني قطعت كل هذا البعد بين سطرين، وخلال عشر ثوانٍ كما تقول الساعة، هذه هي فائدة الساعات الرقمية: أنني لا أقرأ الساعات المعقربة بالسرعة نفسها، وأحتاج إلى ثانيتين أو أكثر زيادة وبالتالي كنت لن ألاحظ قبل غفوتي الوقت بدقة، رغم أن الساعات القديمة أكثر حميمية وتفاهمًا مع الجسد، لكن كل جسد يبهت بالتدريج في هذا العصر. إن تقدم البشرية هو تحركٌ ضد الجسد، ومعجزة الكمبيوتر أنه حوّل كل شيء إلى لغة، ولغة واحدة، وتدريجيًا لن يعود هناك شيء، ثم لن يعود (هناك)، ولا (هنا)، حتى المكان سيذوب كباقي الوشم في اللحم، كل الأجساد ستصير كلمات.

حتى حارة السيدة زينب قد تصبح كلمة. هل سيمكن ذات يوم للكمبيوتر أن يستعيدها من أعماق التاريخ والذاكرة البشرية وموجات الضوء والصوت التي انعكست عنها وما تزال تتردد إلى آخر الكون وآخر الزمان؟

سننتظر.

4-السيدة

الجدة الأسطورية القادمة من حكاية خرافية. قلت لها أنني جوعان يا (سِتّي)، فألقمت الرغيف باذنجانة مقلية مملحة وناولته لي. قلت لها أنني لن آكله كله وأنني سأرميه، فقالت منذرة أن ربنا سيزعل منّي. لم أنس ذلك النذير قط في صوتها.

كنت أعرف أنه ارتحال جديد بسرعة الضوء إلى الزمكان، إلى طفولتي وحارتنا وبيتنا رقم 12 الذي اقتلعه زلزال 12 أكتوبر 1992، لكنني كنت أعرف أنني سأعود.

وكنت أعرف أنني سألقي بالرغيف في فناء البيت، فعلتها ووقفت لحظات أرمق الرغيف القتيل يرتجف ببقايا الروح، ثم استدرت لألعب مع أولاد الجيران، لكني لم أنس النذير طيلة اليوم.

وفي الليل حلمت أن ربنا غاضب منّي، كان ينظر لي من السماء، ولم أجد في الأرض مخبأ منه، ظللت أحصف من تراب الحارة الكثيف وألقيه على السماء، لكنها كانت تعتكر ثم تصفو، تعتكر ثم تصفو، ونجومها تطرف كالعيون.

استيقظتُ على صوت جلبة، شجار في الحارة، ظننت أن جارتنا أم عنتر تشاجرت مع جيراننا من الحارة المجاورة. جدتي ترتدي السواد الأزلي. الصرامة والغضب باديان على وجهها كما لم أرها. نظرت من الشباك ورأيتها تخرج إلى الحارة. كانت أم عنتر تهتف غاضبة في جنديين من ذوي النجوم الزرقاء والأشرطة الحمراء، لقد أوقعا منها قفص الخبز، وتناثرت الأرغفة تلفظ أنفاسها الأخيرة على التراب.

كانت جدتي تصرخ فيهم حتى ضاع صوتها:

–ربنا سيزعل منكم، سيزعل منكم.

5-الموت

عدت من جديد. رباه! هل يكون الموت ذهابًا كهذا بلا عودة؟ غفوة تنتاب المرء بالصُّدفة الأبدية؟

6-القاضي

"قاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن الخليل بن عبد الله الهمذاني الأسد أبادي.. معظم الذين كتبوا عنه اتفقوا على أنه توفي سنة 415 ه، وأنه عمر طويلاً حتى جاوز التسعين..

"يجمع من أرّخ للقاضي أنه كان كثير التآليف متنوعها.. هو الذي فتق علم الكلام ونشر بروده، ووضع فيه الكتب الجليلة التي بلغت الشرق والغرب، وضمنها من دقيق الكلام وجليله ما لا يتفق لأحد مثله حتى طبق الأرض بكتبه."[3]

البوابة تصدر صريرًا معذَّبًا هذه المرة. كيف يكون العبور يا ترى؟ أعرف أن الأوراق لن تجرحني لكن من قال أنني أنا والورق ورق حين أعبر؟

---

[3]- القاضي عبد الجبار المعتزلي: شرح الأصول الخمسة، تقديم وتحقيق: عبد الكريم عثمان(مكتبة و هبة، مصر، ط3، 1996)-مقدمة المحقق، ص13.

عبرت فعلاً. كنت أجلس القرفصاء مع (عليّ)، لا أذكر-أو لا أعرف-من كان أهله، لكنه كان يجيد استخراج الخنافس من جحورها تحت الأحجار، وكنت أحب مشاهدته كأنما هو ساحر. مر علينا رجل طويل عريض جلمود، وصاح:

-قم يا ولد أنت وهو. اغسلا أيديكما ولا تلعبا في الأرض.

وقمنا بالفعل بينما أكمل الرجل طريقه إلى الجبل، ذلك المرتفع الذي كان يشرف على الحارة من إحدى نهايتيها، ظللت أتابعه ببصري. وقف فوق الجبل فتزاحم حوله الناس. راح يخطب فيهم:

-لقد جاءوكم بالخراب، اخرجوا لهم قبل أن يدخلوا، طهروا الأرض من دنسهم، قاتلوهم حتى ينطق الحجر والشجر.

كان يتكلم حين أمسك عليّ بذراعي وهمس مرتجفًا:

-الخنافس..

كان الرجل خلع نعله وطاح في الخنافس، والغريب أنه كان يعرف بالضبط أي حجر تسكنه، لكنها تكاثرت عليه، غطت ساقيه حتى سقط في بحيرة منها، والناس مذعورون ولا أحد يتحرك، والرجل تلتهمه الخنافس.

انسحبتْ وتركتْ البقعة خاليةً نظيفة، لقد ذاب الرجل، والخنافس تعود لسكنى الأحجار، والناس يعودون إلى بيوتهم في الحارة والجبل، تقدم علي باكيًا نحو حجر وهو يصيح:

-لن يلتهمونا جميعًا.

وقلبَ الحجر وألقى بنفسه تحته، فسحبته الحشرات تحت الأرض. عدت إلى البيت صامتًا ولم أخبر شيئًا أحدًا، وعلى السلم رأيت خنفساء، تقززت من منظرها وحاولت هرسها بصندلي، كانت تسكن كلما أدوسها ثم تمشي، تسكن ثم تمشي.

-ماذا تفعل؟

قال الرجل، ألم يمت منذ دقائق؟

قلت:

-هل تحيا ثانيةً بعد أن تموت؟

استدار إلى تلاميذه في فناء البيت قائلاً:

-بعض الأشياء لا تموت هكذا، وكما كنت أقول:

"**ومن ذلك أيضًا قوله تعالى {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ} أورد ذلك متعجبًا منهم في الكفر، مع ما له عز وجل عليهم من النعم**.."[4]

7-الغواصة الصفراء

"كلنا نعيش في غواصة صفراء"

"We all live in a yellow submarine"

[4] - القاضي عبد الجبار المعتزلي: شرح الأصول الخمسة، تقديم وتحقيق: عبد الكريم عثمان(مكتبة وهبة، مصر، ط3، 1996) ص.360

فيلم الخنافس Beatles الأربعة: الغواصة الصفراء. السريالية في أوضح وأعظم صورها. البلد الذي دمره الرجال الزرق بأسلحة التجميد والتفاح الأخضر، وهرب منه رجل واحد في غواصة صفراء. في طفولتي كنت منبهرًا بمشهد الرجال الطوال جدًا الذي كانوا يلقون بالتفاح على الناس ليتجمدوا، وظل المشهد عشرين عامًا حيًا في ذاكرتي إلى أن شاهدته ثانيةً على الكمبيوتر.

إن الكمبيوتر يعيد إلينا الأشياء المفتَقَدَة. إنه اللوجوس العكسي. كل الأجساد صارت لوجوس، صارت (صفرًا وواحدًا).

هل سأصير يومًا صفرًا؟

وواحدًا؟

8-مروة

بخار القهوة يُجَفِّن عينيّ. هل تعرف أن القهوة مشروب صنعه صوفية الإسلام لأول مرة كي..؟ هل ذكرت هذا من قبل؟ من الصعب أن تعرف الآن. في الدوامة يصير الزمن أفقيًا. كل اللحظات معًا، تستطيع أن تختار من بينها.

كنت أقف مع أخي الكبير أمام الكنيسة الواقفة على بعد بيوت من مسجد سيدي أحمد الطيبي. كانت في ذلك الوقت بيضاء نظيفة غير مبهرجة، وكانت معنا

(مروة)، البنت التي أبهرتني وجذبتني بأهدابها الطويلة الكحيلة من قلبي. كنا نلعب معًا ونقبل بعضنا بعضًا حين نتقابل في بيت جدتي، قلت لها في ذلك اليوم:

-أنا لم أدخل الكنيسة قط.

قالت لي شاردة:

-أنا دخلتها كثيييييرًا.

قلت:

-أنتِ مسيحية؟

فلكزني أخي من جانب خفي، ثم لامني بعد ذلك. لم أكن أعرف أنها تهمة، أو أنها تهمة أن أصفها بذلك، فقط لم أكن أرى صليبًا على يدها ولا قرطًا أو ثقبًا في أذنيها. الفتاة البيضاء الحية الجميلة كالشمعة. لم أرها بعد ذلك قط.

لكنني الآن معها. أمسكت بكفها وهي تتأمل الكنيسة. لم تلحظ ذلك. كنت أتألم. بدأت أتنهد من الألم. ولكزة أخي تحرقني كصليب يترسّب على عظمة كتفي، والكنيسة تغلق أبوابها ونوافذها تباعًا.

9-الفقد

كل شيء يتسرّب، الهواء والماء والرمل والتراب والنور والكلام والدماء والحجارة والناس والسماء والشمس والأرض والليل والنهار ونباح الكلاب وصوت السيارات على أسفلت الشارع خلف الحارة بعد منتصف الليل، والمقهى على الشارع، والجيران،

وظلال السحاب على الأرض وعلى بطانيتي الخشنة الدافئة في الشتاء، رائحة الخبز، اللون الأزرق الذي رأيته على إصبعي بعد أن لسعني غطاء الوعاء الساخن، مذاق الليمون في فمي حين أصابتني الحمى، تربيتة ابنة خالتي الطفلة ذات العامين على كتفي وأنا طفل مريض متشرنق بالصوف وأرتجف، الماء يجف على أرض الحارة الطينية، الوقت ينفد، القطار الذي كنا ننتظر عبوره ليهز البيت فاتنا، استيقظتُ ذات صبح فلم أجد خالي الذي سافر ثم عاد ثم مات، حتى الظلام والظلال، الكل ينفد.

كل شيء يتسرب، أم أنني أنا أتسرب من أصابع كل شيء؟

10-ابن رشد

"**هو القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، مولده ومنشؤه بقرطبة، مشهور بالفضل، معتن بتحصيل العلوم، أوحد في الفقه..، وكان أيضًا متميزًا في علم الطب، وله في الطب كتاب الكليات، وقد أجاد في تأليفه.**"[5]

كانت ورشة النجارة تقع بالقرب من إحدى نهايتي الحارة، لكنها لم تكن ورشة نجارة هذه المرة، كانت ورشة لصناعة الأرابيسك وشتى الزخارف والمنمنمات. كان الصناع يقفون حول رجل يتمركز المكان، رجل طويل عريض مهيب، وكان يتناول نماذج المنمنمات والمقرنصات والنقوش القرآنية المختلفة، وحتى أبسط التعاشيق التي تزين النوافذ والمشربيات والأبواب والأثاث. الغريب أنه كان يمررها على أذنه ويقول:

[5] -أبو الوليد ابن رشد: تهافت التهافت، تحقيق: سليمان دنيا(دار المعارف، مصر، ط1، 1964) مقدمة المحقق، ص7.

(هذا حسن)، ويستبقيه، أو: (هذا غير حسن)، ويستبعده، اقتربت منه في استغراب، كان يراني آتيًا من بعيد، لكنه لم يوجه لي كلامه إلا حين دخلت عليه، فقدم لي منمنمةً، وقال:

-اسمع.

مررتها كما كان يفعل على أذني، فسمعت موسيقا. ما أجملها! موسيقى عربية فيها ربع التون، وأحيانًا كنت ألمح فيها ثمن التون، لكن بناءها العام أقرب إلى التجريد الموسيقي الكلاسيكي الغربي. موسيقا مباشِرة بلا آلات. لقد اخترع الموسيقار السوفييتي العبقري (خاتشادوريان) موسيقى لا إيقاعية، وقدّم العبقري السوفييتي الآخر (شوستاكوفيتش) موسيقا لا لحنية، لكن هذه أول موسيقا لا آلاتية، هذا غريب، وجميل!

قلت له بصوتي الطفولي الرنان:

-هذه موسيقا مجمّدة.

ابتسم وقال:

-إنها كما الموسيقا تجسيد لخطة بناء الكون، وتجريد له، بل هي أكثر الفنون تجريدًا، سيدرك أخونا الفيلسوف الألماني هيجل هذه الحقيقة في القرن التاسع عشر.

ثم أعطى واحدةً لي وقال:

-خذها، ضعها على باب بيتك، ستحميكم من كل غريب، وأبلغ سلامي للحاجّة.

أخذتها منبهرًا بها كلعبة. صعدت سلمنا قفزًا. دخلت على جدتي هاتفًا:

-انظري، انظري ما أعطاه لي الرجل.

أمسكت بالقطعة، قلّبتْها في يدها، ثم مررتْها على أذنها، وسألتني:

-من أعطاها لك؟

ظلت تسألني، أو ظل صدى السؤال، ثم غطته الضوضاء، بدت الأصوات قبيحة جدًا بعد الموسيقا، ومن النافذة رأيت العساكر ذوي الشرائط والنجوم يغلقون الورشة، ويقبضون على كل من فيها، ويحطمون القطع، ويدوسونها بالأقدام. شعرت بالكسور والنعال على قلبي. إنها تتشوه. تتحطم. تغوص في التراب. تهدّج نَفَسي دون بكاء.

وعلى كل بيت راح جندي يحاول فكّ القطعة التي تحميه. كأنها لغز يحاول حله. أغلبهم يئس وانصرف. لم أر أكثر لأن جدتي كانت ما تزال تسألني:

-من أعطاها لك؟ من؟

تنبهت لسؤالها وتلفت حولي، وعندئذٍ سمعت صوته-الرجل نفسه-من البيت المجاور، يقول في هدوء كأنه يشرح درسًا:

-"لا ينبغي أن يُشكّ في أن هذه الموجودات قد تفعل بعضها بعضًا، ومِن بعض، وأنها ليست مكتفية بأنفسها في هذا الفعل، بل بفاعل من خارج، فعله شرط في فعلها، بل في وجودها.."[6]

11-أم علي

البيت المرتفع المائل الرهيب. أعلى بيت في الحارة. بناء كابوسيّ كأبراج التعذيب في قلاع العصور الوسطى. مع ذلك كانت له جاذبية هائلة في نفسي. كنا نزورها أنا وجدتي. (أم علي) العجوز التي تزوج أولادها وبقيتْ مع زوجٍ طاعنٍ في السن، وطاعنٌ فيه السنّ، وحيدَين في هذا الارتفاع.

كانت لارتفاع البيت الهائل تمسكني طيلة وقفتي في النافذة المطلّة على أحد الأسرّة. كنت صغيرًا تستطيع أن تمسكني بيد واحدة، لكنني أذكر كل شيء؛ لأنني أتشبث بكل شيء، أو لأن كل شيء يتسلّخ مني وأتسلّخ منه. كنت أشعر بأنني أسقط رغم أنني واثق من أنني أقف على السرير. الشعور نفسه منعني من إكمال فيلم كنج كونج، حين صعد القرد العملاق الذي قتله الجَمال إلى الإمبيرستيت بحبيبته، بينما تصطاده الطائرات بكل حرية في موقع مكشوف.

كنت في تلك الليلة أعاني من ارتفاع الحرارة، وقالت لها جدتي أن تدخلني من الهواء، لكنها ردت بالعكس، سيخفف الهواء البارد من حرارته. كنا ونحن أطفال

---

[6] - أبو الوليد ابن رشد: تهافت التهافت، تحقيق: سليمان دنيا(دار المعارف، مصر، ط1، 1964) ص.787

نبت على أجساد النساء، كاطمئنان البراعم لأغصانها، فظللت أرمق الحارة التي بدأت تنام.

قالت (أم علي):

-الملاعين، أخذوا بيتًا جديدًا اليوم، لم يقف لهم فتوتنا (زركش)، ولا شيخ الحارة (عبد الجبار)، وأغلقوا ورشة (رشدي)، وغدًا يأخذون الحارة كلها.

-لا زال هنا الشيخ (عربي)، و(حازم)، و(عبد الوهاب)، و(مَطَر)، لن يسكت أحد.

-وماذا سيفعلون مع العسكر؟ (كح كح).

-ادخلي من الشباك يا أختي.

-الهواء سيفيده يا حاجة.

كانت تحملني لأتفرج من الشباك بحماس رغم ضعفها، كانت مريضة لكنها تريد أن تريني الحارة التي قد تذهب بين يوم وليلة، أن تورثني هذا العالم، أنا الذي سأرحل إلى بيئة أخرى وعالم آخر.

لكن الريح الباردة المسننة كانت تصطادها وتطعن رئتيها، سعلتْ ثم قررت أن تستريح، تركناها، وفي الصباح التالي عرفنا أنها تنزف من رئتيها دمًا.

نزلتْ من برجها إلى المستشفى، لكنها لم تمت إلا بعد أن رأت كل شيء يضيع. بدلاً من أن يقتلها الطِّفل بالتهاب رئوي قتلها الشُّعور، ولم تستطع أن تكون شهيدة، رغم أنها حاولتْ، كما لم تستطع أن تنسىٰ.

أما أنا فقد كنت جميلاً.

12- كأنها خجلىٰ

صارت لهم مستعمرة تحت كل حجر، وشقة في كل بيت، وغرفة في كل شقة. تغطَّى الأرابيسك والنقوش بالتراب. حتى الحجارة ذبلت وتوارت في الأرض، أو بين بعضها البعض، كأنها خجلى. لم تعد أي أشجار أو نباتات خضراء في الحارة. السحب هجرت السماء، وقلت النجوم وذبلت. حتى الشمس لم تعد تزخرف الأرض وقت الشروق ووقت الأصيل بالبال الرائق. صارت عمليّة. بزنس شمس.

الغريب أننا كنا لا نراهم، نرى فقط رموزهم مدسوسة في صمت تسمم المنمنمات والنقوش، نجوم خماسية وسداسية صامتة لا تعزف الموسيقا، وكنا نعرف أن لهم عملاء في كل مكان من جلدتنا، لكنهم مثلهم عسكر لا يفهمون في الأرابيسك أو العمارة أو الموسيقا أو حتى في أحجار الحارة على أرضها، وبين أضلاع بيوتها، ثم لم نعد نعرف من منا ومن معهم، نعرف فقط أن كل شيء يموت في ألم ودون وداع لائق.

أمشي على هذه الأرض وأشعر أنني أجنبي عليها، وأتساءل أين ذهبت الأمكنة؟

احتجت وقتًا طويلاً كي أتحول من النمط الزراعي إلى النمط الصناعي ثم إلى النمط الرقمي.

النمط الزراعي أن تحمل الأرض وتسير بها في كل خطوة.

النمط الصناعي أن تدوس على الأرض بالحذاء، وأن تنظف منها نعلك حين تدخل بيتك.

النمط الرقمي أن تتحول الأرض إلى مجرد ذكرى، ولا يكون لك بها علاقة، ترى صورها على الشاشات وتتذكر، لكنك لن تفلح في غرس جذر واحد منك فيها، ستدرك أنها أرض صناعية. ديكور مسطّح. وأنها لن تحمل جثتك إلا من باب الروتين.

13-ابن عربي

"أبو بكر محمد بن علي، من قبيلة حاتم الطائي.. والمعروف باسم: ابن عربي، وبألقاب: محيي الدين، الشيخ الأكبر، ابن أفلاطون، ولد في السابع عشر من شهر رمضان سنة 560 هـ، الموافق 28 تموز سنة 1165 م..، وقد توفي سنة 638 هـ–1240 م، في مدينة دمشق.."[7]

[7]- محيي الدين ابن عربي: شجرة الكون، تحقيق رياض العبد الله (دار العالم، بيروت، ط2، 1958)-مقدمة المحقق، ص11.

هل كان هذا منذ أكثر من عدة قرون؟ لست متأكدًا. كما قلت: من العسير في الدوامة التي تنفتح وتنغلق في ثوان أن تدرك الزمن الطبيعي، وربما كان الزمن الطبيعي هو الوهم وكانت هنا الحقيقة. إن عالَم الذاكرة أرحب بكثير وأعمق وأغمض وأغرب من مجرد ذاكرة الفرد. إنك تذكر كل يوم موقفًا في طفولة الفارابي أو مشهدًا رآه سيبويه في حلم، أو رائحة عطر شمّها في أحد الأسواق القاسم الرسّي، لكنك تتمثّل كل ذلك بأشكال أخرى، تمامًا كالتراب الممزوج بالماء وضوء الشمس الذي يتحول إلى زهور وثمار في مطابخ الأعشاب والأشجار. ظاهرة البناء الزمني.

أنت تعيد باختصارٍ إنتاجَ التاريخ في كل يوم من أيام التاريخ. تمامًا كنظرية الإعادة المختصَرة Recapitulation التي وضعها هِكِل Häkel، والتي يمر فيها الجنين البشري بكافة أطوار الكائنات الحية الأساسية في مراحل تكوينه الرحمية، كائن وحيد الخلية. كائن بسيط عديد الخلايا، سمكة، سلمندر، سلحفاة، دجاجة.. إلخ، وصولاً إلى الإنسان.

أنت كذلك تتعرض لتأثير كل رجال التاريخ ونسائه في كل يوم في تكوينك، لكنك لن تحصي أبدًا قدر هذا التأثير، ولن تصف تنوعه.

هذا هو السبب الذي جعلني الآن حين أراه لا أدري أهي المرة الأولى أم أنني أعرفه قبل ودون أن أقرأ له أو عنه حرفًا.

كالعادة بدا طويلاً عريضًا مهيبًا. أم أنه منظور الطفولة؟ على كل حال كان يرتدي بذلة عتيقة وطربوشًا ويجلس في مكتب التموين الذي كان يتوسط أحد جانبي الحارة. لكن المكتب لم يكن مكتب تموين، كان مكتبة تنبجس منها الكتب القديمة، ويبدو أنه كان يقوم بفهرستها في دفتر كبير.

جاءه الحاج (مصباح)، كان الوحيد الذي يملك سيارة (عتيقة جدًا) من أهل الحارة، كان عابسًا يشتكي بقوله:

-يا شيخ عربي، لقد كسروا باب بيتي، وغدًا سيطردوننا من بيوتنا.

رد عليه منهمكًا في عمله:

-وبعد غدٍ ستلفظهم الأرض. إنها ليست أرضهم لأنهم لا يذكرونها، إنهم يرونها ويمشون عليها، لكن الإحساس خادع، والحاسة الأصدق هي الذكرى. هؤلاء ليست لهم ذاكرة هنا، وسيرحلون.

-بعد ماذا؟ بعد أن يكونوا قد سرقونا وطردونا وشردونا؟

-إنها معركة ذاكرة يا حاج مصباح، إذا نسيتَ رحلتَ، وهم لا يذكرون شيئًا، وأنت عليك فقط ألا تنسى.

كان مهمومًا لكنه لا يشاء إظهار ذلك. لم أعرف لماذا يناديه بالشيخ، لم تكن عليه علامة شيخوخة أو مشيخة، مجرد أفندي محترم.

فجأة حدثت ضجة كبيرة، ذهب الحاج مصباح ليرى، والشيخ عربي في مجلسه لا يبالي، كانت الضجة من بيت (أم علي) الشاهق، ضجة غريبة كأن أشياء تسقط من

السماء بدون نظام وتتخبط، وكأن البيت خالٍ من الشقق، أنبوب أرض–سماوي. ومن باب البيت تدافع عدد من العساكر، لم يعودوا حمرًا زرقًا، بل صاروا كذلك خضرًا وكاكيين بأعلام مختلفة، لكنهم جميعًا تكوموا محطمي العظام خارج البيت، مشهد عجيب حدث في لحظة وأثار فزعي.

تنبّهت إلى الشيخ الذي كان يكتب وهو ينطق ما يكتب ببطء:

-"وأما إبليس فإنه مكث في مكتب التعليم أربعين ألف عام يتصفح حروف (كن) ليشهد من تمثالها كاف كفره فتكبر، {أبى واستكبر}، وشهد فيها نون ناريته {خلقتَني من نار وخلقته من طين}، فاتصلت كاف كفريته بنون ناريته {فكبكبوا فيها[8]}.."[9]

14-نظرية في فناء العالم كما نعرفه

صار الفقد فقدين. النسيان يولد النسيان. الفراغ في الفراغ فراغ. إذا نسيت فسوف أَنسى. إذا نسيت ما يضيع فسوف يضيع ما نسيت. أفقد ما أنساه. وأفتقد ما أفقده بالنسيان.

لم يعد شيء يخفف عني، لا استعادة الذكريات الباقية، ولا زيارة الأطلال والأحجار الشاهدة على الغائبين.

---

[8]- كَبْكَبُوا: أي تساقطوا ون نظام وتخبّطوا.

[9]--محيي الدين ابن عربي: شجرة الكون، تحقيق رياض العبد الله (دار العالم، بيروت، ط2، 1958) ص 46.

ظنني الأصدقاء أجافيهم، والحقيقة أنني لا أجد لي مكانًا واحدًا على الأرض، كأنني أمشي على الماء، كلما خطوت على بقعة تفرّغت في لحظة تحت قدمي لأخطو بلا قاع.

إن العالم لن يفنى في الثلج ولا في النار، بل سيتفكك ويذوب في الفراغ، والقليل جدًا الذي نراه الآن حولنا مجرد رواسب متبقية على القاع، ونحن نصطرع عليها.

15-ابن سينا

"أبي كان رجلاً من أهل بلخ، ثم انتقلنا إلى بخارى، وأحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب، وأكملت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب، حتى كان يقضي مني العجب"[10]

استشرى الاستيطان، وبدأت الأوبئة في الظهور. أمراض عجيبة وهلوسات وصرع، وطب لا يشفي، وحياة لا تجدي، وموت لا يريح.

كان كل شيء يفقد كينونته. النقوش تنحل إلى خطوط، وتسقط على الأرض وتهرسها الأقدام كالمكرونة المسلوقة. المساجد تفقد أحجارها ويغزوها الطوب ثم الخرسانة كالسرطان، حاول كثير من المهندسين استئصال الأورام الطوبية والخرسانية

---

10 - أبو علي بن سينا: منطق المشرقيين (المكتبة السلفية، مطبعة المؤيد، القاهرة، 1910م)، المقدمة، ص أ.

لكن هذا كان مستحيلاً دون هدم البناء كله. هناك سرطانات أخرى ظهرت، ربما سمعتَ عن السرطان الموسيقيّ، أو سمعتَه، لم تعد هناك آلة تقريبًا أو عازف إلا وحوله ألحان لم يعزفها، تتكاثر ويستحيل القضاء عليها، وترف حوله كالذباب، كلها نشاز وكلها تحلق في كل اتجاه، لم تعد هناك موسيقا تُعزف جيدًا، ربما لا تلاحظ ذلك لأنك غير متخصص أو لم تدرس النوتة، لكن جميع النوتات تمتلئ الآن على أطرافها من أعلى وأسفل السلالم بنغمات غريبة تنمو كل يوم، وتتمدد بوحدات إيقاعية طويلة، كما أن هناك سرطان الصمت، السكتات الموسيقية والقلبية والمخية والنفسية التي اجتاحت الموسيقا والبشر معًا.

لقد أغلق العسكر مكتب الشيخ عربي لما كان يروّجه من كلام حول الذاكرة، لقد لاحظوا أن الزمن بدأ يبطئ، وأن الشمس أصبحت أكثر ألفة واجتماعية، وأن البيوت تفقد أحجارها وتسري فيها الشقوق بمعدلات أقل.

كان هذا هو السبب فيما أعلم لتكوين أول حلقات المقاومة السرية، الحراشيف، أو الذي أطلقوا على أنفسهم كذلك.

كنت ألعب في الحارة مع رباب ودعاء ابنتي جارتنا نظيرة، وكان معي أولاد خالتي، كنا نطحن الطوب الأحمر بحجر ثم نعبئ المسحوق في أكياس ونظل نتقاذفها، من بعيد كان العسكر ينظرون لنا في ريبة كأننا نمثل مناورة.

لم تنجح محاولة إقامة حصن للعسكر فوق أعلى بيت في الحارة، بيت (أم علي)، ولهذا فقد طردوا (أم نظيرة) وأولادها، وتحصنوا في بيتها. أنت تتساءل معي الآن لماذا كانت تسمَّى البيوت بأسماء سيداتها؟ من علامات الفقد حلول أسماء الرجال محل أسماء النساء، لأن الرجل حين يستولي على بيت يكتب عليه اسمه، بينما المرأة لا تطلق اسمها على بيت إلا حين تعمره وتزرع الأجنّة على بابه وفي أصص النبات في الشرفات إلى جوار الفول والطماطم والصبار.

أمام بيت أم نظيرة سابقًا كان الحصن الخفي للحراشيف. بدروم تحت الأرض يعبر بين حارتين. وفي الجبل كانت هناك بيوت عدة محفورة فيه حَفرًا. كلها كانت لهم لكن هذا لم يعلن عنه إلا مؤخرًا.

ونعلم الآن أن بداية هذه الحركة كانت على يد الشيخ السيناوي. كان من بدو سيناء ثم استوطن القاهرة منذ زمن، وقد تأثر بفكرة مكتب الذاكرة، والفهرس الذي كان يؤرخ فيه الشيخ عربي كل شيء، وقرر أن يحيي فكرة الشيخ بأسلوب جديد يتميز بطابع العمل السري.

كانوا يقومون بعمليات ناجحة حقًا.

أمس–لا أدري إن كان أمس أم منذ عقود أم قرون–وضعوا نقشًا إسلاميًا ضخمًا بمساحة جريدة مفرودة، ليست فقط مساحته هي التي شكّلت خطورة، بل جمال تكوينه، طبعًا لم يكن خطرًا علينا، كنا نحن أطفال الحارة نلهو ونخطو ونقفز فوقه دون

ضرر، لكن إحدى دوريات المستوطنين مرت عليه، فتحول كل أفرادها إلى حجارة ثم تحطمت، ظلت فتاتهم متناثرة في الحارة حتى اليوم، وقيل لنا أنها نجسة، وأن علينا ألا نقربها باللعب ولا يصح الجلوس فوقها أو استعمالها في أي شيء.

كنت أعرف الكثير لأن جدتي كانت متحمسة لمساعدتهم. كانت تبعث للحراشيف بالطعام ومصابيح الكيروسين، كما كانت تحرص من جهة أخرى على تلقيني كل ما فات، كانت مثلاً ترفعني لأجلس في الهواء النقي على إفريز النافذة، وتأتي بثلاثة مشابك غسيل، تشبكها معًا طوليًا على سبيل اللعبة، وتقول:

-الله أكبر، الله أكبر، هذا هو الأذان.

وظللت ألعب هذه اللعبة.

أما لماذا سموا أنفسهم بالحراشيف فهذا عرفته-أو ذكرته-فيما بعد.

للأسف كانت كل تعاليم الشيخ السيناوي سرية، ولم أعرف منها سوى ما أذكره إلى الآن من جملة واحدة سمعتها ذات مساء من خلف نافذة البدروم:

-"**نريد أن نبين أنا كيف نسلك من أشياء حاصلة في أوهامنا وأذهاننا إلى أشياء أخرى غير حاصلة في أوهامنا وأذهاننا نستحصلها بتلك الأولى..**"[11]

---

[1] - أبو علي بن سينا: منطق المشرقيين (المكتبة السلفية، مطبعة المؤيد، القاهرة، 1910م) ص.9

16-أم رمضان

العقـد الأزرق الرهيـب الـذي ظللـت أحلـم بحباتـه طيلـة أعـوام طفـولتي، حباتـه اللامعات نصف الشفيفات حولهن زخارف فضية دقيقة جدًا، والسِّنّة الفضية البارقة، وقطها السيامي زيتي اللون الذي لم يكن يفارقها.

كانت جارتنا الأقرب والأكثر مودة. تطرق بابنا كل مساء وتدخل لتجلس على كرسيها المفضّل جوار الباب. هذا المساء لم تكن ضاحكة كعادتها.

لقد هرب قطها.

لم أكن أعلم في سني المبكرة أن الحيوانات تستشعر قدوم الطوفان والزلزال، وأنها تقرأ مصائر البشر في لغات الشقوق بأجساد البيوت.

لكن جدتي فيما يبدو كانت تعلم.

صعدنا مع أم رمضان إلى شقتها، بحثت جدتي بعناية حتى وجدته، قبل أن تقول في انتصار:

-هذا هو..

كان في الحائط شق أسود يلتهم مشهده الأعصاب، يبدأ من السقف ويضرب كالبرق الأرضية، ويمد جذوره في سقف شقتنا نحن، برق مظلم أجوف مخيف، شجرة

مقلوبة تنبت من أعلى، ويومًا ستسقط ثمارها من سقفنا كِسَفًا مظلمة من الليل والسماء.

17-ابن حزم

"**الإمام الجليل، المحدث، الفقيه، فخر الأندلس، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، المتوفي سنة 456هـ..**"[12]

ذهب السيناوي وجاء حازم ليقود الحراشيف، كانوا يسمونه الجدع، لم يكن شيخًا كسلفه، كان كهلاً في الأربعين عملاقًا عفيًا، وكان العسكر يخافونه فكان يمشي عاري الجذع في وضح النهار، ولهذا خطورته، لأن حراشفه كانت واضحة لكل ذي عيان، لم نكن نعرف معنى الحراشيف أصلاً قبل حازم.

كانت تلك النقوش المنمنمة الإسلامية الدقيقة التي نقشوها على جلودهم ببراعة وصبر وقوة تحمل هائلة. كان شرط الانضمام لهم أن يقبل العضو ثلاثة نقوش على جسده على الأقل ودون أي تخدير من أي نوع، وبهذا لا يقبل هذا العضو التضحية بمبدئه مهما كان المقابل، هكذا صار على العساكر أن يقتلوهم جميعًا أو يسلخوهم كي ينتصروا في معركة الذاكرة.

---

[1]2 - أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم: الإحكام في أصول الأحكام، تقديم إحسان عباس (منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، د.ت، دون رقم طبعة)ج1، الغلاف.

لم تكن هذه فائدة النقوش الوحيدة، بل كان لها أثر مؤلم على كل من يراها أو يمسها من العسكر، لهذا انطبق عليها وصف الحراشيف.

صار كل (حَرْشَف)-كما يسمون الواحد منهم-عمارة إسلامية بشرية، وقد كانوا يهتمون بمختلف الفنون والتقاليد الموروثة لكن العمارة ظلت الفن الأهم.

كان الجدع يخطب أحيانًا في أيام الجمعة، ورغم أن خطبه كانت عجيبة جدًا على آذان السامعين إلا أن كلاً منهم كان يعرف جيدًا دوره في المقاومة، وكان هذا بينًا من أعداد العساكر المسلحين الذين يحاصرون المسجد كلما خطب. لم أحضر له سوى خطبة واحدة أذكر منها:

-العمارة هي وسيلتنا للمقاومة. العمارة هي الفن الذي يجسد الحضارة ويلخصها، هي التي تصور كفاحنا في مواجهة العالم، هي الفن الذي تتصارع فيه الإرادة البشرية مع الطبيعة في أوضح الصور، سيدرك الفيلسوف الألماني نيتشه هذه الحقيقة في القرن التاسع عشر.

نيتشه في خطبة جمعة؟! ولكن لم لا ما دام ينطق بشعار المقاومة؟ لا شأن للحقيقة بصراع الإرادات. إن الحقيقة لا تنمو إلا على ضفاف الأنهار حين تنحسم المعارك، أما الإرادة فهي جذور شيطانية تشق الصخور وتستحلب منها العصارة.

كان من الطبيعي أن يكون مصير رجل كهذا هو القتل.

إن الثوار الحقيقيين يفقدون أجسادهم سريعًا، ويتلخصون في رموز، والرمز لا يقتله سوى رمز، لكن ذوي النجوم الخماسية والسداسية لم يجيدوا صناعة الرموز كما أجادوا تحطيم الأجساد، بل ربما ساعدوا على تحرير الرموز من أجسادها في الأوقات المناسبة.

في الواقع كانت ميتته هي أعظم تكتيك ممكن في هذه الظروف. لقد أثّرت حادثة اغتياله البشعة في مشاعر الكثيرين من حارتنا والحارات المجاورة، وصهرت المشاعر والعزائم وقللت من التنافر في الرأي والمصلحة، واستأصلت كثيرًا من الزوائد الذاتية بين الناس. كانت وفاته عابرة للذوات، ربطت الناس في معانٍ جديدة، وانتشرت أعمال التخريب الموجهة ضد المستوطِنين وزادت عمليات النقوش، واندمج عدد أكبر من الناس في الحركة.

والناظر إلى هذا التطور من بعيد يدرك أن هذه كانت نقطة البداية الحقيقية لحركة ثورية كبرى توارثتها الأجيال، وتداولتها الأرحام، ومن ورائها كان شاهد قبر الجدع في الجبل يتغبر حينًا نقشه ثم يصفو، يتغبر ثم يصفو، ويقول في غموض:

-"**الكل أكبر من الجزء.. كل شخص هو غير الشخص الآخَر.. الشيء لا يكون قائمًا قاعدًا في حال واحدة.. الطويل أمدّ من القصير.. ولا يدري أحد كيف وقع له ذلك**"[13]

---

[1]3 أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم: الإحكام في أصول الأحكام، تقديم إحسان عباس (منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، د.ت، دون رقم طبعة)ج1، ص 16.

18-الذين أطلقوا على أنفسهم

شهدت الفترة التالية تحولاً يوشك أن يكون جذريًا في مسار حركة الحراشيف، حيث اندمجت أمهات الحارة أغلبهن في الحركة، وصارت مبادئ الحركة غير المعلنة دينًا رسميًا وأخلاقًا فطرية، إن أقوى الثورات هي التي تمد بجذورها في الأرحام، وتصير بَشرًا. هكذا كانت علاقة الكلمات بالأجساد في الأيام الخوالى، الكلمات كن يتحولن إلى أجساد، وليس العكس.

من يستطيع أن يمنع الناس من الإنجاب؟ تستطيع أن تمنعهم من الكلام، من الكتابة، من التعليم، من العمل، من الحياة، من الموت، لكنك لا تستطيع أن تمنعهم من البعث.

كان هذا هو الجيل الجديد من الحراشيف، وكانت النقوش لا تُرسَم على أجسام الصبيان إلا بعد البلوغ وبرغبتهم، أما البنات فكن يكتفين بارتداء الثياب التي تحمل شيئًا في رسومها منها.

العجيب أننا نحن الأطفال كنا نشعر -ولا زلنا- أن هذه أجمل أيام حياتنا، صحيح أن هناك استيطانًا، ونجومًا، وعنفًا، وقتلاً، لكننا كأطفال كنا شديدي الحساسية تجاه الألفة والحنان والأسرة والتآخي، كنا لم نعرف بعد اليأس من الحب. كل الأطفال يحبون مشهد تصالح عدوين أو اتفاق ندين. حاول اعتصار ذاكرتك القديمة -ما لم تكن قد تخلصتَ منها- وستعرف أن ما أقوله صحيح، ولهذا أحببنا هذه الفترة ونحن نرى كل أهل الحارة عائلة واحدة، وكنا نجد في اجتماع الجدات والأمهات والخالات والجارات الفرص الكثيرة لكي نلتقي ونلعب ونشتم في الغزاة ومن عاونهم، في تلك

الفترة شاهدت فيلم الغواصة الصفراء لأول مرة، ورغم أن الغواصة كانت بيضاء لأن البث كان أبيض وأسود إلا أنني انبهرت به جدًا.

كنا لا نخاف من الغد ما دمنا نؤمن بشيء، ولم يعد شيء قادرًا على إخافتنا، كما لم نعد نحزن على من نفارق، ممن يهاجر، أو يموت، أو يتوقف في أثناء الأشياء.

19-الكوكب

توالت الزعامات. لم تكن كلها مميزة أو فارقة في تاريخ الحركة الصاعدة، أو بالأحرى الغائرة، في الأجساد والقلوب والحجارة نقوشًا وتعاشيق، حتى جاءت هذه السيدة.

قيل عنها أنها كانت قادرة على نقش الحجر بصوتها ليصير منمنمة أو مقرنصة أو آية قرآنية، وأن الأماكن التي تتكلم فيها تتحول بالتدريج إلى عمارة أنيقة عريقة كلما تردد صوتها فيها، في الواقع كانت تصنع المكان صنعًا، وهي من الأمثلة الأخرى على علاقة الكلمات قديمًا بالأجساد، بل علاقتها أيضًا بالأماكن والأبعاد.

وقيل عنها أنها كانت أمًا لثلاثين طفلاً، كلهم عاشوا ونشروا الدعوة في أرجاء القاهرة، كما قيل أنها كانت تحمل في الرحم الواحد خمسة أو ستة منهم، وأنها كانت أخصب من السحاب، لدرجة أن الأبواب التي طرقتها كلها عاد خشبها إلى الحياة وأعطى أوراقًا وفروعًا وثمارًا، لكنني لا أصدق كل هذا.

كانت أهم أعمالها افتتاح ورشة رشدي بعد سنوات طويلة، وقدرتها على إعادتها إلى العمل كما كانت وأفضل، لتمكنها من المناورة السياسية والتأثير في النفوس، فلم تكن مهارتها في التثوير والاستنفار بقدر موهبتها في التفاوض مع الذكاء في استنباط الحق من شقوق القلوب والصخور.

ولهذا كانت فترة زعامتها فترة أكثر هدوءًا واستقرارًا، كانت فترة بناء أكثر منها جولة حرب، وتوفيت في فراشها كما قيل، وقيل أيضًا أن آخر ما قالته كان مواساة لابنها الأصغر الذي بكاها حتى روى الأرض، فهمستْ له:

–ادنُ منّي.

فدنى، فهمستْ له:

–أغمض عينيك حتى تراني[14].

فأغمض عينيه.

وهنا أسلمتْ الروح.

لكنني لا أصدق كل ذلك.

---

14 - أم كلثوم: أغنية: هذه ليلتي.

20-صاحب النهر

كان الزعيم التالي متعلمًا سابقًا في ورشة رشدي التي أعادت افتتاحها السيدة، وقد درس فيها لأعوام، ولم يكن زعيمًا سياسيًا صرفًا، بل كان مُنظرًا من منظري الثورة، وكانت له نظرية ثورية تذهب إلى أن الموسيقا لا تتجسد فقط في النقوش، بل في التحف الطبيعية كذلك من الطمي والنباتات وصفحة المياه الهادئة السيارة، وأنها تكثر حول ضفاف الأنهار، وأنها تنمو بلا انقطاع.

هذا تحديدًا ما أدي إلى انتشار الحركة إلى أن وصلت إلى حدود (المنيل)، وأقامت لها الحصون والمستعمرات حول ضفتي النهر، وبالتالي ظهرت زعامات جديدة من تربة مختلفة أكثر شبابًا، وتزاوج الحجر مع الماء.

كان هذا هو التغيير الأساسي المميز الذي أتى به صاحب النهر، وهو تغيير عظيم التأثير لو نظرنا إليه بحساب التراكم التاريخي للحركة.

وقد توفي هذا الزعيم وهو يمسك بكأس من ماء النهر، ويقربه من أذنه المدربة على اصطياد النغمات والغناء، وقد أصابته الحمى بشبه لوثة، فقيل أنه مات ظمآنَ والكأس في يديه(15)، لكنني لا أصدق كل ذلك.

15 - محمد عبد الوهاب: أغنية: النهر الخالد.

21-مطر

من الزعامات النهرية أيضًا كان (مطر)، وهو زعيم عجيب حالم خرافي. هو الذي أدخل فكرة أن المطر والسحاب أيضًا يعزفان الموسيقا، وكان شديد الإيمان بالماء والغرين والطمي والقمح والذرة والجميز، كما أنه لم يكن كالسيدة أو صاحب النهر من قبله يفيض من خصوبته على كل شيء، بل كان على العكس، كانت التلال تخضرّ من جوعه وتكبر ثم تكبر، وكانت فلسفته أن العدم نبع الوجود، وأن التناقض المزعوم بين العدم والوجود لا وجود له، وأن الجوع هو الأرض، وأن العطش مجرى النهر الذي يشقها.

كان مطر أيضًا أول زعامات المنيل، نشأ وقطن جوار النهر، لكن ميتته أعادت إلى الأذهان حادثة مقتل الجدع حازم وسواه من الزعماء الذين اغتيلوا، فقيل أنه كان في غرفته التي تزخرفها الشمس المزخرفة أصلاً من خلال قوالب الأرابيسك، الشمس الذهبية السائلة على كوكب النهر السيار، وأنه علِم أن الغزاة حاصروا بيته الصغير الفقير، فجلس وكتب ما بقيَ منه على صوت أقدامهم وهم يقتربون:

"لوجهكَ هذا التراب المباغتُ

ما بين وجهكَ والأرضِ

حلمٌ لوجهكَ والأرضِ

فاسجدْ

هل تراهم يسجدون الآن في رقصة عشقٍ دمويٍّ؟!

إنهم يقتربونْ

فاقرأ الماءَ انتماءَ الشجر الأخضر للفقر الصريحْ

وانتسب للشجر الأخضر والفقر الصريحْ

إنهم يقتربون الآنَ

فاسجدْ

واقتربْ"[16]

22-الزلزال

أصبحت العمليات التي تقوم بها الحركة غير محتملة، وجرت محاولات عديدة لاجتثاثها والتعامل معها بمنتهى العنف، لكن الحركة كانت في ازدهار مستمر، وتتابعت الزعامات والتي لم تقل نشاطًا وإن قلت تميزًا، وكادت أن تستولي على قلب القاهرة، لولا الزلزال.

جاء الزلزال فغيّر المصير. لم يتصور أحد أن يكون انكسار الموجة على صخرة زلزال، بعد أن كافح البشر طويلاً لاقتلاعها بلا جدوى، وهي أقرب إلى النصر.

لقد هدم الزلزال أغلب بيوت الحارة، انهدمت الورشة، وبيتنا رقم 12، وبيت (أم علي) الأسطوري الذي قهر غزاة السماء، وكثير من بيوت الجبل التي تحصّن فيها الحراشيف، والغريب أن النقوش صارت أقل عمقًا وأكثر نعومة على أجساد الحراشيف كلما سقط بيت أو آل إلى السقوط، وبعد انهيار أغلب البيوت استولى الجنود عليها وكشفوا ورش إعداد النقوش والمنمنمات والرموز، واستحكمت سيطرتهم على الحارة التي كادت أن تفرض سيادتها على القاهرة كلها.

---

16 -محمد عفيفي مطر: قصيدة: أول الحلم آخر الحلم.

حتى الجنود أنفسهم لم يصدقوا أنفسهم.

كان الواحد منهم ينظر إلى زميله ويخلع خوذته ويقول: انتصرنا، فيعانقه زميله في فرحة ودهشة مكررًا: انتصرنا.

ثم صدرت القوانين بترحيل عدد كبير من أهل الحارة عنها حتى لو كانت بيوتهم سليمة بدعوى أنها آيلة إلى السقوط وواجب هدمها.

كنت أنا وجدتي ممن تم ترحيلهم هكذا.

ما زلت أذكر ذلك الصباح الأسود، كانت شاحبة ترتدي السواد، وتجمع أمتعتنا وأنا أتشبث بطرف ثوبها، كنت لا أعي كل الكارثة، لكن الجزء الذي وعيته كان كفيلاً بأن يتخثّر دمي كله في قلبي وأوعيتي، في الواقع لم يكن دمي هو الذي يتخثّر، لقد تخثر كل شيء أولاً، كل شيء، ثم سال في شلال عنيف من بين يدي، الهواء والماء والرمل والتراب والنور والكلام، والدماء والحجارة والناس، والسماء والشمس والأرض، حتى رائحة الخبز، حتى تربيتة ابنة خالتي الطفلة عليّ وأنا محموم وأرتجف، استيقظت ذات صباح فلم أجد خالي الذي قتله السرطان، والذي ما زلت أذكر تأوهاته التي تعيش ككائن حيّ رخو في قوقعة أذني، والتي لا أستطيع استخراجها، ولا يستطيع الأطباء، كل شيء يتسرّب؟ أم أنني أنا؟

23-الفصل الأخير

"كريم.!"

انتفضتُ وأنا أعود من عالم سحيق بين السطور، هل كان كل هذا...؟ بل كيف أسأل؟ لا أجد ما يمكن.

كان هذا أبي، يخبرني أن جدتي مريضة وأن عليّ أن أذهب لرؤيتها، قال:
-حتى لا تقول أنني لم أقل لك.

فلم أقل شيئًا.

وبدأت أعد العدة للرحلة المقدسة.

* * *

مصادر الحراشيف(بحسب ترتيب ورودها):

1. الذاكرة.
2. الأطلال الباقية.
3. أحلام لا أدري إن كانت أحلامًا حقًا أم ذكريات حقيقية قديمة.
4. بدر الدين بن بهادر بن عبد الله الزركشي الشافعي: البحر المحيط في أصول الفقه، تحرير: عبد القادر عبد الله العافي، مراجعة: عمر سليمان الأشقر (دار الصفوة، الكويت، ط2، 1992م).
5. القاضي عبد الجبار المعتزلي: شرح الأصول الخمسة، تقديم وتحقيق: عبد الكريم عثمان(مكتبة وهبة، مصر، ط3، 1996).
6. فيلم: الغواصة الصفراء، إخراج: George Dunning.
7. أبو الوليد ابن رشد: تهافت التهافت، تحقيق: سليمان دنيا(دار المعارف، مصر، ط1، 1964).
8. محيي الدين ابن عربي: شجرة الكون، تحقيق رياض العبد الله (دار العالم، بيروت، ط2، 1958).
9. أبو علي بن سينا: منطق المشرقيين (المكتبة السلفية، مطبعة المؤيد، القاهرة، 1910م).
10. أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم: الإحكام في أصول الأحكام، تقديم إحسان عباس (منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، د.ت، دون رقم طبعة)ج1.
11. أم كلثوم: أغنية: هذه ليلتي.
12. محمد عبد الوهاب: أغنية النهر الخالد.

13. محمد عفيفي مطر: قصيدة: أول الحلم آخر الحلم.
14. مصادر موسيقية وفلسفية وعلمية أخرى.

ـ تمت ـ

الكاتب في سطور

- كريم الصياد.
- من مواليد القاهرة، 30 نوفمبر 1981.
- تخرّج في كلية الآداب-جامعة القاهرة-قسم الفلسفة، ويعمل حاليًا مدرسًا مساعدًا بالقسم، ويدرس حاليًا للدكتوراه بجامعة كولن بألمانيا الاتحادية.
- عضو مؤسس بجماعة "**جُذور**" الفلسفية، وأول رئيس لها.
- عضو الجمعية الفلسفية المصرية.
- عضو اتحاد كتاب مصر.
- صدر له:

1. **الأَمْر**: ديوان شعر، دار اكتب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2007.
2. **منهجٌ تربويٌّ مقترَحٌ لِفاوست**: ديوان شعر، دار شمس للنشر والإعلام، القاهرة، 2009.
3. **ن= ∞ ف**: رواية، دار شمس للنشر والإعلام، القاهرة، 2010.
4. **الرجال-Y**: مجموعة قصصية، دار شمس للنشر والإعلام، القاهرة، 2010.
5. **صِدامُ الحفريات**: مجموعة روائية، دار اكتب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2012.

6. **اثنتا عشرة عينًا على مَشهد التسلُّط**: كتاب في الفلسفة، (تحرير ومشاركة)، منشورات الجمعية الفلسفية المصرية، دار الهاني للطباعة والنشر، القاهرة، 2008.
7. **النظام المتغير لأوسكار لوفل تريجز (ترجمة)**، مركز جامعة القاهرة للغات الأجنبية والترجمة التخصصية، القاهرة، 2012.
8. **مقدمة إلى مبادئ الأخلاق والتشريع لجيريمي بنتام (ترجمة)**، مركز جامعة القاهرة للغات الأجنبية والترجمة التخصصية، القاهرة، 2013.
9. **عدد من الأبحاث الفلسفية بكتب ودوريات علمية محكّمة.**

- له تحت الطبع:

1. نظرية الحق، دراسة في فلسفة القانون والحق الإسلامية (رسالة الماجستير في الأصل).

البريد الإلكتروني: Radical_kareem@yahoo.com